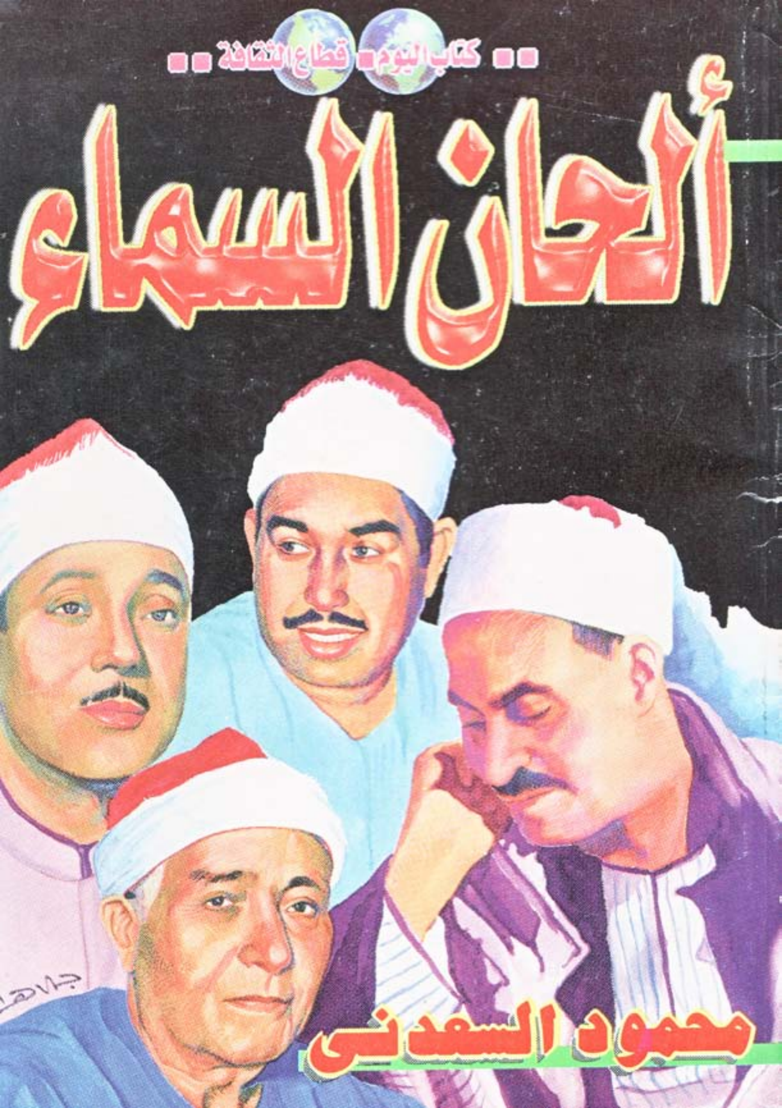


كتاب اليوم قطاع الثقافة
ألحان السماء
محمود السعدنى

كتاب اليوم

يصدر عن دار أخبار اليوم أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

رئيس التحرير :

نبيل أباظة

□ يناير ١٩٩٦ □

اسعار كتاب اليوم فى الخارج

[illegible]	١	دينار
[illegible]	١٥	درهم
[illegible]	٢٥٠٠	ليرة
الأردن	١٥٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٥٠	فلس
السعودية	١٠	ريالات
السودان	٢٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	٧٥	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١	دينار
سلطنة عمان	١	ريال
غزة	١٥٠	سنت
ج. اليمنية	١٥٠	ريال
الصومال نيجريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الإمارات	١٠	درهم
قطر	١٠	ريال
انجلترا	١,٧٥	جنك
[illegible]	١٠	فرنك
[illegible]	١٠	مارك
[illegible]	٢٠٠٠	ليرة
[illegible]	٥	فلورين
[illegible]	٣٥	ليرة
[illegible]	٤	فرنك
[illegible]	١٠٠	دراخمة
[illegible]	٤٠	شلن
[illegible]	١٥	كرون
[illegible]	١٥	كرون
[illegible]	٣٠	روبية
[illegible]	٣٠٠	سنت
[illegible]	٤	كروزيرو
[illegible] واشنطن	٣٥٠	سنتا
[illegible]	٤٠٠	سنت
[illegible]	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٠ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٢٥ دولارا

أمريكيا أو ما يعادله

أوربا وأمريكا ٣٠ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٠ دولارا أمريكيا أو ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٢ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت . ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

ألحان السماء

محمود السعدنى

الغلاف بريشة الفنان :

سيد عبد الفتاح

مقدمة الكتاب

بقلم :

فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

●● استمع فضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى إلى فصول هذا الكتاب، قرأها عليه واحد من مريديه، فأبدى إعجابه بما جاء فيه، وأثنى على كاتبه ودعا له بالتوفيق والسداد.

ولما طلب منه مريدوه أن يكتب مقدمة للكتاب، رحب على الفور، وكتب هذه الكلمات الطيبات ●●

« ما أحسن ماسمعت، وما أروع مادعيت إليه، وما أروع استجابتى له.

فالكاتب القدير الأستاذ محمود السعدنى، الذى طوف بأدبه وفكره ماطوف، وأثرى المكتبة الأدبية والسياسية بما خلف، أهل لأن يجعل الله لدينه نصيبا من أدبه، وحظا من قلمه.

فهنيئا له حين يتوج رحلته القلمية بهذا الشرف العالى، الذى عاش فيه مع كتاب الله، وبدأه بأول مرحلة فيه، وهى الصوت الذى نطق، بعد الأذن التى استمعت، وأشاعت أنغام الجلال، فى آذان الخلق جميعا.

ولقد كان الناس يحسبونه فى أقل منازل الدين واليقين، لأنهم يرون فى غيرهم أعلام علماء، وفحول مُعْلّمينَ معلِّمين.

وقد ارتضى هؤلاء الكبار، أن يكون حظهم من المجتمع فى هذه المكانة، وارتضوا أن تكون مكانتهم عند الله، لأنهم الصدى الحلو

من كلام الله.وحسبهم أنهم كانوا جنودا لكلمة الله: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

فهؤلاء من جنود الحفظ، وقادة التحفيظ، ومنهم استقبل العلماء مافسروا، وأخذ الفقهاء عنهم ماجتهدوا، وأخذ الأدباء منهم مادبجوا به عيون المقال، وفصل الخطاب.

فهنيئا لهم أولا، وهنيئا للكاتب الذى رفع اعتبارهم فوق كل اعتبار، وجعل كل متكلم فى الدين، لايتكلم إلا بحجة ماأخذ عنهم، وبانضباط ماتلقى منهم، فهم الذين صححوا لكل لسان كيف يتكلم بالقرآن.

إن هذه الكتيبة من القراء الذين شدوا بألحان السماء، وبتأليف الله لهم، لم يكونوا مكررين لا أداء، ولا أصواتا، ولا لحنا، بل لكل واحد منهم نغم يخدم النص.

فمنهم قمة الأحكام كالحصرى مثلا، ومنهم قمة الصوت الجميل كعبد الباسط، ومنهم قمة الفن الرفيع الرائع، المستحيل الجميل، كمصطفى إسماعيل، ومنهم جامع كل ذلك فى ائتلاف لايرتفع فيه فن على فن كالشيخ محمد رفعت، فهو كل هؤلاء جميعا، ويزيد أنه عالم بما يقرأ، تستطيع أن تفهمه بمجرد نطقه للكلمة، ولمحبيه ـ فى عصره ـ حكايات عن هذا الفهم الرائع لما كان يقرأ فى مسجد فاضل بدرب الجماميز.

فرحمهم الله جميعا ، ورضى عنهم، وجعل منهم أسوة للجيل القادم، لايستنكفون أن يكونوا كما تسميهم العامة «فقهاء» وهم فى الحق «فقهاء» بمفهوم الخاصة.

ورعى الله الأستاذ السعدنى وجعل ماقدم فيهم تاجا لما قدم فى سواهم، فسواهم خدم كلام الناس، وهؤلاء خدموا كلام الله.

بارك الله فيك يا محمود، وبارك منك، لتكون أسوة لإخوانك، فرسان القلم، ليجعلوا من كتاباتهم جانبا لله، فذلك خير وأبقى.

محمد متولى الشعراوى

فى البدء كانت الكلمة !

محمود السعدنى

هذا الكتاب ـ ألحان السماء ـ صدر أول مرة فى أول أبريل عام ١٩٥٩.. وقبل موعد صدوره بعدة أيام كان العبد لله يقيم فى سجن القلعة متهما بالشيوعية! ولم تتح الفرصة للعبد لله للاطلاع على الكتاب أو الاحتفاظ بنسخة من نسخه، لأن جميع النسخ اختفت من الأسواق خلال شهر رمضان.. ولم أتمكن من الحصول على نسخة من الكتاب إلا بعد ذلك بسنوات ومن فوق سور الأزبكية.. وحتى هذه النسخة ضاعت منى بعد ذلك، واضطررت إلى نشر بيان ناشدت فيه القراء الذين يحتفظون بنسخة من الكتاب أن يرسلوها لى شاكرين.

وتفضل أحد القراء فأرسل لى نسخة من الكتاب، واكتشفت بعد النظرة الأولى أنها فقدت بعض صفحاتها، وأن الزمن أكل الرسوم والنقوش التى كانت على الغلاف.

وبعد فترة تلقيت صورة من الكتاب أرسلها لى مشكورا الشيخ أحمد الرزيقى.. القارىء المعروف.. ولم أفكر فى إعادة طبع الكتاب إلا بعد رحلة السياحة الطويلة التى قمت بها مرغما خارج مصر، وبعد أن اكتشفت خلال الطواف بأنحاء العالم العربى، كم هو ثمين هذا الكنز الذى وهبنا الله إياه، متمثلا فى هذا الفن العظيم، فن قراءة القرآن الكريم.

واكتشفت خارج الحدود السر وراء الطلب الذى تقدم به الملك محمد الخامس إلى السلطات الفرنسية وهو فى منفاه الإجبارى للسماح له بالاحتفاظ بعدة أسطوانات للشيخ عبدالباسط عبدالصمد.

واكتشفت السر وراء استدعاء الشيخ الشعشاعى وزميله الشيخ شعيشع إلى بغداد لإحياء ليالى مأتم الملك غازى ملك العراق.

واكتشفت السر وراء إصرار عثمان حيدر آباد أحد أمراء الهند العظام وأحد أثرياء العالم فى عصره على دعوة شيخ القراء الشيخ محمد رفعت لإحياء ليالى شهر رمضان فى قصره العظيم ومقابل أى كمية من الذهب يطلبها الشيخ رفعت.

وبعد عودتى إلى مصر هالنى مدى الفرق الرهيب بين مشايخ الأربعينات والخمسينات والستينات وبين ما نسمعه الآن، خصوصا السادة المشايخ الذين احترفوا تلاوة القرآن فى جهاز التليفزيون.. أصوات ملساء وأخرى صلعاء، وأغلبها بلا نبض ولا إحساس.

ما الذى جرى ؟ وكيف تغيرت الأحوال ؟ ولماذا انحدر المستوى على هذا النحو الذى لم يكن يتوقعه أحد على الإطلاق ؟ أين لجان الاستماع بأجهزة الاعلام؟ أين الأساتذة الكبار الذين كانوا حجة فى علم القراءات، كالشيخ محمد الصيفى والشيخ محمد الفيومى والشيخ منصور الشامى الدمنهورى ؟ أين أصحاب الحناجر الذهبية التى كانت تحلق بأفئدة الناس إلى السماوات العلا؟ كالشيخ منصور بدار والشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبدالباسط عبدالصمد؟ أين المشايخ العظام الذين قدموا ألوانا من فن التلاوة كتب لها الخلود مع الأيام ؟ أين الشيخ الشعشاعى والشيخ عبدالعظيم زاهر والشيخ أحمد سليمان السعدنى والشيخ

محمد صديق المنشاوى والشيخ محمود على البنا والشيخ فريد السنديونى والشيخ محمود عبدالحكم ؟

وهناك أكذوبة ضخمة تتردد هنا وهناك اختلقتها وأشاعتها جماعات الإرهاب، التى ترفع شعارات دينية، أكذوبة تقول : إن الصوت الجميل يتعارض معا القراءة الشرعية.. وهى أكذوبة بلا جدال، لأن سيد الخلق جميعا ونبى الإسلام ورسول الله إلى الناس جميعا سيدنا محمد بن عبدالله كان له رأى يختلف عن رأى جماعات الإرهاب.

فقد عزم الرسول الكريم على تعليق جرس كبير فوق سطح أول مسجد أقيم فى الإسلام.. وبينما الصحابة منهمكون فى رفع الجرس فوق سطح المسجد، إذ جاء أحد الصحابة وقال للرسول : يارسول الله: لقد رأيت فيما يرى النائم أننى أصعد على سطح هذا المسجد وأنادى المسلمين للصلاة بدعاء، وراح الرجل يردد الدعاء الذى رآه فى المنام: « الله .. أكبر الله.. اشهد أن لاإله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدا رسول الله.. حى على الصلاة.. حى على الفلاح.. الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله»..

وبدت السعادة على وجه الرسول الكريم وقال للرجل.. نعم مارأيت. وتهللت أسارير الرجل وتوجه قاصدا الصعود على سطح المسجد ليؤذن للصلاة. ولكن الرسول الكريم استوقف الرجل بحزم وقال له: دع بلالا يؤذن، انه اندى منك صوتا.

هذا قانون من قوانين الاسلام وضعه الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه، قانون يمنع الجمع بين وظيفتين فى وقت واحد، فمن حق هذا المسلم أن يحلم وهو مأجور على حلمه الجميل، ولكن يؤذن؟ فلا وألف لا. لأن رفع الآذان وظيفة سيدنا بلال، ولسبب بسيط، هو أنه اندى صوتا، وبعبارة أخرى، صوته أجمل وأمتع!

وإذا كان هذا هو حكم رسول الله ونبى الاسلام، فمن هو هذا الذى من حقه أن يحكم بعد ذلك؟

كان الشيخ على محمود يرحمه الله يرفع الآذان من فوق مأذنة سيدنا الحسين فيجتمع عشرات الألوف فى الميدان للاستماع إلى أذان الشيخ، واليوم نستمع إلى عشرات الميكرفونات عبر الشوارع والساحات، فنتمنى ان نهاجر بعيدا عن هذه الأصوات. كان الشيخ على محمود ينفذ وصية رسول الله، وهؤلاء السادة من أصحاب الأصوات القبيحة يتحدون رسول الله ويخالفون وصيته.

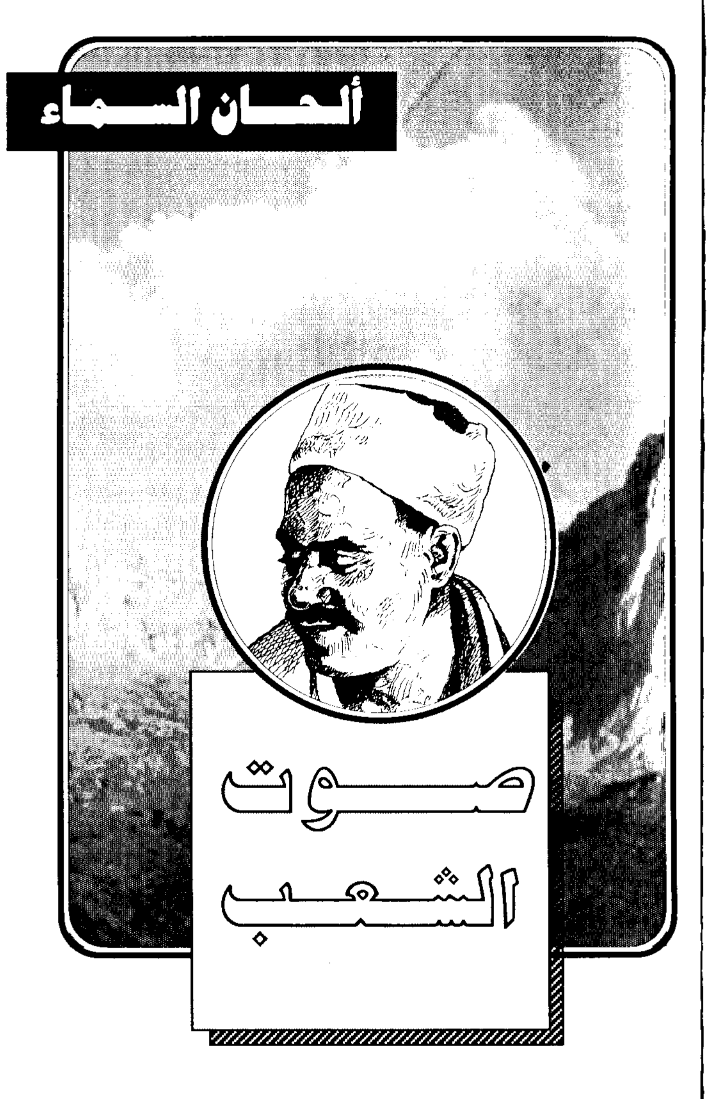
وكان لابد من اصدار هذه الطبعة الجديدة من الكتاب. وهناك قضية أخرى.. فقد كنت أعلم وأنا أشرع فى كتابة سطور هذا الكتاب اننى أخوض فى حقل الغام. والسبب ان السادة المشاهير من قراء القرآن صاروا كنوادى كرة القدم، لكل منهم معجبون ومتعصبون وأنصار. ولقد حدث ماتوقعته بالتمام والكمال، عندما هاجمت الشيخ الطبلاوى لجهله وضيق أفقه وعدم اعترافه بأحد غيره من القراء، اتصل بالحاج إبراهيم نافع وهمس له بأنه يخشى أن يكون وراء الهجوم عليه القارئ الدكتور نعينع. وعندما وصفت الشيخ نعينع بما يغضبه ويرضى الله، اتصل بالصديق اللواء عبدالحليم موسى وهمس له بأنه يخشى أن يكون وراء الهجوم عليه الشيخ الطبلاوى. أما الشيخ الطبلاوى فقد لقنته درسا لاأعتقد انه سينساه، عندما اتصل بى تليفونيا معاتبا، فأغرقته فى بحر من الأدب الرفيع ومن بحر الشاعر الكبير الحطيئة ومن بحر أجداده وأحفاده وإلى آخر العنقود الشاعر عبدالحميد الديب. أما الدكتور نعينع فلم أظفر به بعد، وأرجو أن يلهمه الله فيتصل بى شفاهة أو تحريرا وأرجو أن يقوينى الله لكى أجعله يفهم انه ليس كل الخيل يصلح للرهان!

كما انهالت على العبدلله عشرات الخطابات من القراء، كل قارئ يريد من العبدلله أن يضع قارئه المفضل على رأس قائمة القراء.

وسأكتفى فى هذا الكتاب بعرض نموذج واحد من هذه الخطابات واخترته لعدة أسباب من بينها ان صاحب الخطاب يعيش فى البرازيل واسمه يحيى عاصم، كما انه يبدو من سطوره سميع قديم ومن أنصار الشيخ كامل يوسف البهتيمى. وهو غاضب لأننى حشرت الشيخ الشعشاعى والشيخ الحصرى بين عمالقة القراء ، كما انه زعلان لأننى تجاهلت الشيخة سكينة حسن، وهى فى رأيه السيدة الأولى وربما السيدة الوحيدة التى نقشت اسمها على صفحات فن تلاوة القرآن الكريم.

على العموم. هذا هو كتابى : « ألحان السماء » بين أيديكم، وأرجو أن أكون قد أديت الأمانة، وكما ينبغى أن تكون. وأرجو أن يكون للعبدلله أجر المجتهد، وفى الاسلام للمجتهد المخطئ أجر واحد وللمجتهد المصيب أجران. وألف رحمة ونور على المشايخ الكبار الذين سبقونا إلى رحاب الله. ونسأل الله التوفيق للمشايخ الذين على قيد الحياة!

محمود السعدنى


ألحان السماء
صوت
الشعب

الأصوات كالوجوه لكل منهـا سحنة خاصة ! هناك أصوات تنفر منها .

وأصـوات تـدخل السرور عليك، وأصوات تـرتـاح إليها ، وأصـوات تجعلـك ـ بالرغم منـك ـ تعشقها وتحبها .

والأصوات كـالمعادن بعضها كـالصفيح، وبعضها كـالفضة وبعضهـا له بـريق الـذهب، وبعضها لـه رنينه، ويندر جداً .. أن يكون الصوت من ذهب .

من هذه الأصوات الـذهبية صوت الشيخ مصطفى إسماعيل، وفى الماضى القـريب كـان صـوت الشيخ منصور بـدّار، الذى اعتزل القـراءة وآثر الـراحة فى قريته .

ولكن هنـاك من بين الأصـوات التى سمعناهـا ــ ومـا أكثرهـا ـ صوت يقف فريداً غريباً بـاهراً ، وسر غرابتـه ـ فى رأى العبـد لله ـ أنه استمـد طبيعته من جـذور الأرض ، إنه صـوت المرحوم الشيخ محمد رفعت .. صوت الشعب .. فمـن أصوات الشحاذين والمداحين والندابين والبـاعة الجائلين ، استمـد المرحوم الشيخ محمـد رفعت صوتـه . فخرج مشحـونا بـالأمل والألم، مرتعشـا بـالخوف والقلق عنيفـا .. عنف المعـارك التى خـاضها الشعـب، عريضـا .. عـرض

الحياة التى يتمناها .. ولذلك كتب لهذا الصوت البقاء وسيظل إحدى علامات الطريق فى تاريخنا الفنى الطويل .

ولقد نشأ الشيخ محمد رفعت فى حى شعبى ومات فيه، وفى حى البغالة والسيدة زينب اصطخبت بأسماع الفتى الضرير الصغير أصوات كثيرة، استطاع أن يخزن منها ذخيرة ضخمة، واستطاع بعد ذلك أن يمضغها ويهضمها وأن يستخرج منها فى النهاية صوته الخالد الذى نفذ إلى أعماق الناس فأبكاهم وأشجاهم .. وهزهم هزاً.. ولا يهز أعماق الناس كالحقيقة والصدق. ولقد كان الشيخ صادقا فى إنفعاله، وكانت طبقات صوته ونغماته حقيقية مأخوذة من واقع الناس، ومن فنونهم، من أسواقهم وندواتهم وأفراحهم البسيطة.. وأحزانهم العنيفة.. ومعاركهم القاسية مع الحياة .

ولكن الفنان العملاق رفعت لم يقنع بدراسة فنون البسطاء، بل راح ينهل من الفن الموسيقى الرفيع، وعندما مات خلف ثروة كبيرة من اسطوانات باخ وموزارت وبيتهوفن وليست، وعدة اسطوانات أخرى للعازف الكبير باجانينى، وكان رفعت يقضى أمسيات طويلة مع هؤلاء العباقرة الأفذاذ يستمع إلى النغم الرائع الذى أبدعوه فظل مخلدا على الزمان .

ومن الدراسة الشاقة الطويلة للنغم الرائع وفنون الشعب، استطاع رفعت أن يبقى فى عالم الفنون راسخا كالهرم، خالدا كرسالات الأنبياء .

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يقترن ظهور الشيخ محمد رفعت بظهور عبقرى من نفس الطراز هو الشيخ سيد درويش، لم تكن مصادفة ، فقد كان الشعب قد اكتمل وعيه ونموه وترجم هذا الوعى وهذا النمو بثورة ١٩١٩، وفى خلال الثورة كان سعد زغلول يمثل روح الشعب الصلبة القوية المصممة على السير فى

الطريق الذى بدأه حتى النهاية ، وراح سيد درويش يلحن صيحات الشعب السياسية والاجتماعية، وراح رفعت يلحن حياة الشعب الروحية .

ليست هذه مبالغة، فسيد درويش ورفعت كانا زعيمين من طراز سعد، وكما التقت طبقات الأمة وطوائفها حول سعد، وكما طربت لسيد درويش، تراها ـ وهنا العجب ـ تلتف حول رفعت بطوائفها، فلم يحدث قط قبل رفعت أن استمع أقباط مصر إلى قارىء، بل إن استماعهم إليه كان بشغف وبحب وبإعجاب شديد .

بل إن عظمة رفعت امتدت إلى خارج هذه الحدود، فقصة الضابط الكندى الذى انتهز فرصة وجوده فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية، وطلب من مدير الاذاعة أن يسهل له مقابلة رفعت، وعندما التقى به بكى الضابط الكندى وقال : لم أكن أعلم أنه أعمى، والآن عرفت سر الألم العظيم الذى يفيض به صوته العبقرى .

وحكايات أخرى كالأساطير شاعت عن الشيخ وذاعت .. وقصة الثورة التى أعلنها المستمعون عندما نشب خلاف بين رفعت ومحطة الاذاعة، حتى إن بعضهم هدد بعدم الاستماع إلى الراديو بالمرة، وهدد البعض الآخر بعدم دفع الضريبة إذا لم تخضع الاذاعة لرغبات رفعت العظيم، وقصة أبخل وأغنى رجل فى العالم عثمان حيدر أباد الذى طلب من العبقرى الشيخ أن يحضر إلى الهند مع « حاشيته » وبأجر مائة جنيه فى اليوم الواحد مع التكفل بنفقات الرحلة والاقامة من جيب الثرى البخيل، وتقول الحكاية أو الأسطورة : إن رفعت رفض عرض الرجل وفضل إحياء ليالى الفقراء بالمجان .

والعبد لله شخصيا لا يعرف إذا كانت هذه القصص حقيقية أم من نسج الخيال. ولكنها على أية حال ترينا كيف أصبح رفعت

بطلا شعبيا مثل عنترة وأبوزيد الهلالى ينسج الناس حوله قصصا خرافية، ولكنها فى الوقت نفسه تترجم مشاعر الناس البسطاء نحو الرجل العظيم، وعندما كان رفعت حيا يقرأ فى جامع فاضل باشا لم يكن أحد من المستمعين يتصايح أو يرفع عقيرته بعبارات الطرب والانسجام. كما يفعل المستمعون اليوم مع المشاهير من القراء .. كان فن رفعت الأصيل يجبرهم على الصمت ويقيدهم فى أمكانهم، يحتملون أحيانا فوق طاقتهم من ضيق المكان، ومن حرارة الجو ليستمتعوا بالصوت العبقرى العظيم .

هذه الحقيقة البسيطة تكفى وحدها ـ دون حاجة للأساطير للدلالة على عبقرية صوته الغريب .

وحقيقة أخرى أبلغ دلالة، فالغالبية العظمى من الأشرطة التى تذاع اليوم للشيخ محمد رفعت لم يكن للاذاعة فضل فيها ، بل الفضل كله يرجع إلى عشاق الشيخ الذين لم يكونوا على صلة صداقة أو معرفة بالشيخ. بل دفعهم الحب الصادق والاعتراف بعبقرية صاحب الصوت إلى تسجيل كل سور القرآن دون ماهدف إلا هدف الاحتفاظ بهذا التراث الخالد ،العظيم فنرى أحد البشوات هو زكريا مهران يحتفظ بتسجيلات الشيخ دون أن يكون قد رأى الشيخ مرة فى حياته .

وهناك تاجر وطنى كبير، وموظف سابق، وعمدة من عمد الأرياف يحتفظون بنفس الشىء لأنهم أدركوا بفطرتهم الفنية السليمة أن هذا الشىء يجب الاحتفاظ به .. لأنه ثمين .

دليل الحكايات الخيالية والحكايات التى حدثت فعلا دليل خطير خلاصته أن هذا الشعب الذى ظلمناه طويلا ولايزال بعض أدبائنا الكبار وفنانينا الكبار ـ الكبار سنا ـ يتهمونه بفساد الذوق وعدم التقدير وعدم الإحساس الفنى. شعب أصيل. أصيل فى وعيه،

أصيل فى تذوقه، وتقديره للفن.. على شرط أن يكون فنا حقيقيا يستحق التقدير .

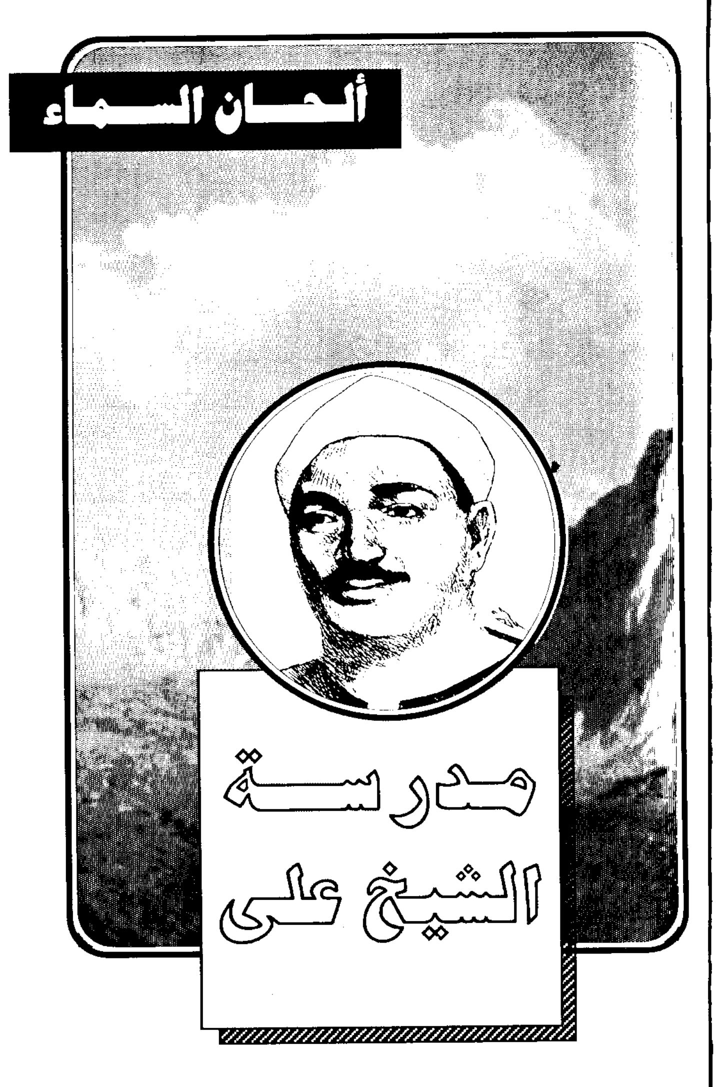
وقد يقول قائل: ربما كان التقدير الذى حظى به رفعت راجعا إلى حب الناس وتقديرهم للدين، وهو قول غير صحيح .. فقد كان مع رفعت مجموعة من القراء لا يمكن حصرها .. ولا تجاهلها، وكان من بينهم عباقرة لمعوا فجأة ثم طواهم النسيان، ولم يبق من بين الجموع الحاشدة إلا رفعت وحده خير شاهد على أن الفن الأصيل يبقى .. وما عداه يزول !

وحتى بعد موت رفعت، وبعد أن ضاع أخلد أعماله .. وهو صوته، وبقيت عدة أشرطة قديمة سيئة التسجيل، بعضها يسىء إلى رفعت أكثر مما يحسن إليه، رغم هذا كله. فقد أثبت الشعب أنه وفى وفاء منقطع النظير .

مثلا .. وهذه حقيقة وليست خرافة. أقسم أحد كبار الجزارين أن جسد العبقرى لن يدفن إلا فى المقبرة التى أعدها له، وكان قد أعد فى صمت وبلا ضجيج مقبرة عظيمة تليق بعظمة الراحل الكريم، وأصر الجزار الطيب على أن يحمل نعش الشيخ بنفسه إلى مثواه الأخير .

ووفد على ماتم الشيخ آلاف من مختلف أنحاء البلاد لم تكن لهم صلات بالشيخ إلا صلة التقدير والاعجاب .

ولكن مفتى سوريا عندما سمع الخبر قال ولحيته مبللة بالدموع: رحم الله شبابه فقد جدد شباب الإسلام، ولايزال مجهولون كثيرون يزورون قبر الشيخ فى صمت ليقرأوا الفاتحة على روح الفقيد. وإلى عهد قريب كانت فى العاصمة وأنحاء أخرى متفرقة من البلاد مقاه تخصص لمستمعى رفعت قاعات بداخلها ليستمتعوا بما تبقى من فن الشيخ فى هدوء .



وقد حدث أن قطعت محطة الاذاعة إرسالها أكثر من مرة لتذيع على الناس بشرى العثور على شريط جديد للشيخ. ويذاع الشريط. ويكون حديث الناس فى كل مكان. وسيظل رفعت حديث الأجيال كفنان عملاق إلى زمن بعيد .

وسيأتى يوم تصبح فيه للفنون الرفيعة الخالدة جامعة، ويكون صوت محمد رفعت على رأس هذه الفنون، والسبب ـ كما أوضحنا من قبل ـ هو أن كل فن خالد جميل يجب أن يستمد وجوده من حياة الناس من فنون الشعب .

ولقد كتبت مرة سابقة عن رفعت، فقلت: إن سبب خلوده يرجع إلى أن صوته كان من السماء، والآن اعترف بخطئى وأعود فأقول : إن سر خلود الشيخ يرجع لسبب واحد . أن صوته العبقرى نبع من آمال الناس والآمهم من أسواقهم وحواريهم . ومن أفراحهم الساذجة، وأحزانهم العنيفة، بعبارة أبسط .. لقد كان صوته من جذور الأرض، كان صوته هو صوت الشعب !

كان لسعد زغلول قارىء خاص هو الشيخ محمود البربرى، وكان سعد زغلول لا يرتاح لسماع أحد سواه، وكان الشيخ البربرى يلقب نفسه «بمقرىء سعد»، ولعله كان القارىء الوحيد الذى لم يكن يلحن فى تلاوته، كان يقرأ القرآن وكأنه يتحدث، وكان يصف تلاوته بأنها القراءة الشرعية الصحيحة .

وكان مغرما بالإعادة .. ولذلك كان يظل أحيانا ساعة كاملة لا يقرأ سوى آيات قليلة. فى عام ١٩١٩ .. اشترك قراء القرآن فى المعركة .

كان الشيخ منصور بدّار يتلو القرآن كل مساء فى الجامع الأزهر .. والشيخ محمود البربرى يقضى أياما بائسة فى السجن، فقد اعتقله الانجليز بتهمة أنه صديق لسعد زغلول، وأنه كان يؤدى له خدمات وطنية، وكان الانجليز على حق، فقد كان الشيخ البربرى يخفى كل مساء وهو خارج من بيت الأمة الاف المنشورات تحت ردائه الدينى الفضفاض، وذات مساء اكتشف الانجليز السر عندما كان الشيخ

البربرى.. يجتاز بوابة « بيت الأمة »، وقد نسى إحكام إغلاق جبته وانهالت من داخلها مئات المنشورات على الأرض .

وفى السجن كان الشيخ البربرى يجمع حوله كل المسجونين بتهمة الوطنية.. ويظل الساعات الطوال يقرأ لهم بصوته الشجى حتى أقلق ذلك خاطر الإنجليز فحبسوه فى زنزانة منفردة.. ولكن هذا لم يمنع الشيخ البربرى من مواصلة القراءة وهو داخل الزنزانة، وبصوت أعلى ليتمكن كل من فى السجن من سماعه، وظل الشيخ البربرى يقرأ فى ذكرى سعد كل عام حتى مات، وربح فى حياته كثيرا ولم يترك خلفه شيئا. وعندما نفى سعد إلى مالطة، قدم الرجل نفسه لسلطات الاحتلال طالبا نفيه مع الزعيم ليقرأ له القرآن هناك. ورفضت سلطات الاحتلال عرض الشيخ البربرى، ولم يكتف بهذا. بل راحت تطارده فى رزقه، وكان المأتم الذى يسهر فيه تحيطه دائما مجموعة من جواسيس الإنجليز، واستغل الوطنيون الفرصة فكانوا يستدعون الشيخ البربرى ـــ عدو الإنجليز ـــ دائما فى مآتمهم، بل كانوا يقيمون أحيانا مآتم وهمية ليسهر فيها الشيخ نكاية فى الإنجليز..

ومات الشيخ البربرى بعد أن عمر طويلا.. وكان على رأس المشيعين لجنازته مكرم عبيد.. فقد كان تلميذا له فى أيام مضت.. أيام الثورة.. وقليلون يعرفون أن مكرم عبيد كان يقرأ القرآن وبطريقة الشيخ محمود البربرى، ولم يكن للشيخ تلاميذ سوى رجلين. أحدهما مكرم عبيد، والثانى كان يقرأ القرآن فى جامع الخازندار، وبنفس طريقة الشيخ البربرى.. واسمه الشيخ سعيد نور.

●●●

قصة كفاح الفتى الريفى الصغير الذى هاجر من قرية « شعشاع » بالمنوفية إلى القاهرة عام ١٩١٥، ليقرأ القرآن فيها بصوته القوى

الجميل، قصة حافلة تستحق التسجيل، ومنذ ذلك العام، عام ١٩١٥، والشيخ الشعشاعى يقرأ باستمرار، وهو يصعد السلم درجة درجة.. حتى بلغ فى النهاية آخر درجات السلم وحوله هالة ضخمة من المجد، وفى يمينه ثروة طائلة عبارة عن مجموعة من الأسطوانات بصوته القوى، ومجموعة أخرى من الأسطوانات بأصوات العباقرة الذين عاصروه.

بدأ الشيخ الشعشاعى مع أحمد ندا وعلى محمود ومحمد رفعت ومحمد الصيفى، وبدأ مثلهم بأجر خمسين قرشا فى الليلة الواحدة، وشهد خلال تاريخه الطويل أياما حافلة، قرأ فى مآتم ثروت وعدلى وسعد زغلول ومحمد محمود وأحمد ماهر والنقراشى، واشترك مع ثلاثة غيره فى إحياء ليالى مأتم الملك فؤاد، وطار من مصر إلى العراق ليقرأ فى مأتم الملكة الأم، وبدعوة من الحكومة العراقية.

واشترك مع الشيخ محمد رفعت فى آخر ليلة للشيخ رفعت قبل أن يدهمه المرض الخطير الذى قضى عليه، وأتيحت له فرصة لم تتح لغيره من القراء، فقد أدى فريضة الحج ، وقرأ القرآن بعد صلاة المغرب فى الحرم النبوى، وكان المسجد النبوى يضيق بمئات الألوف من المصلين من كافة أنحاء العالم الإسلامى.

وقد أذاع الشيخ من جميع محطات الإذاعة العربية فى العالم، وهو يقرأ سورة الكهف أسبوعيا ـــ كل يوم جمعة ـــ فى مسجد السيدة زينب، وهناك كثيرون من القراء الجدد الذين يتعصبون للشيخ ويفضلون صوته على جميع الأصوات، وكان الشيخ الشعشاعى يتساوى فى المرتبة والأجر مع الشيخ رفعت، والشيخ على محمود، وكان أجرهم ٢٥ جنيها فى الساعة، و١٠٠ جنيه فى الليلة، ومع ذلك ابتعد الشيخ الشعشاعى عن محطة الإذاعة المصرية فترة، لأن أحد موظفيها وجه إليه عبارة اعتبرها الشيخ إهانة له، والشيخ الشعشاعى

عاش طويلا، وعلى الرغم من ذلك ظل محتفظا بصوته العميق القوى حتى مات، وكان باستطاعته - وبدون مكبر صوت - أن يقرأ فى عدة ألوف من الناس ولساعات طويلة دون أن يحس إرهاقا.

وللشيخ الشعشاعى لون خاص فى التلاوة فهو لم يقلد أحدا من القراء الذين سبقوه، كما أنه لم يظهر حتى الآن من حاول تقليد صوت الشيخ، والسبب، هو أن الطريقة التى يقرأ بها الشيخ تحتاج إلى صوت قوى فتى.

وماأندر الأصوات القوية فى دولة القراء، ولقد سار ابنه الشيخ إبراهيم على طريق والده، وقرأ بأسلوبه عندما حل محله فى قراءة سورة الكهف يوم الجمعة فى مسجد السيدة زينب، ولكن الابن رغم تفوقه واجتهاده لم يصل إلى الذروة التى وصل إليها والده العظيم.

ولقد حاول البعض التفريق بين الشيخ رفعت والشيخ الشعشاعى، ولكن المحاولات كلها فشلت، وعندما سألته بعد موت رفعت عن رأيه فى صوت الشيخ، كان جوابه: صوت رفعت نادر وكلنا فى خدمة القرآن.. وكان بسيطا فى معيشته، متواضعا فى سلوكه، وكانت أمنيته أن يقرأ مرة أخرى فى الحرم النبوى، وحوله مئات الألوف من أبناء العالم الإسلامى.

●●●

واحد فقط فى مصر يستطيع أن يزعم بحق أنه تلميذ الشيخ على محمود، فقد عاصره مدة طويلة من الزمان كأحد أفراد [illegible] ذلك الرجل هو الشيخ طه الفشنى.

اتصل الشيخ طه الفشنى بالشيخ على محمود، والأخير فى قمة مجده، وكان الشيخ طه شابا صغيرا يقرأ القرآن أحيانا، وينشد التواشيح أحيانا أخرى، ثم لم يلبث أن بهره صوت الشيخ على محمود وطريقته الفذة فى الأداء، وما يتمتع به من صوت عميق قوى يهز وجدان الناس.

وطاف الشيخ طه مع الشيخ على مناطق مصر كلها، وسهر معه الليالى الطوال، وعاش معه حياته المجيدة الحافلة، وفى ليلة من ليالى عام ١٩٣٩، قدم الشيخ على تلميذه الأول للجمهور فحل محله فى ليلة خالدة فى حياة الشيخ طه، واستقبله الناس بالتقدير.. فقد كان الشيخ طه أقدر الناس على استيعاب طريقة أستاذه، ومن ثم أقدرهم أيضا على أن يسد الفراغ الكبير الذى سيخلفه الشيخ على محمود.

وفى عام ١٩٤٢ ، أصبح للشيخ طه فرقة برأسها، ولمع نجمه سريعا فأذاع من محطة القاهرة، ومن محطات الإذاعات الخارجية، ولم يكتف بالتواشيح.. بل ظل يقرأ القرآن شأنه فى ذلك شأن الشيخ على، وارتفع أجره بعد ذلك إلى عشرة جنيهات فى الإذاعة، وثلاثين جنيها فى الليلة الواحدة، وعندما مات الشيخ على - قفز أجره إلى مائة جنيه فى الليلة، إذ لم يعد أحد هناك سواه.

والشيخ طه الفشنى كان فى الثانية والأربعين من عمره يعيش فى بيته بمصر الجديدة، وله بيت آخر هجره منذ عدة أعوام فى الحارة التى كان يسكن فيها الشيخ على محمود، والشيخ محمد سلامة.

وأعظم الأصوات بالنسبة إليه هو صوت المرحوم الصيفى، والشيخ محمد رفعت، ويصفه بأنه فلتة لن يجود بمثلها الزمان.

وهو من عشاق صوت الشيخ مصطفى إسماعيل.. ومن أشد الناس إعجابا بطريقة الشيخ الصيفى فى الأداء.. حدث مرة أن كان الشيخ طه ينشد التواشيح فى ليلة مولد بديروط.. وعندما جاء عند مقطع «استقر به المقام»، أقسم أحد العمد الجالسين بالطلاق أن يظل الشيخ يردد هذا المقطع حتى الصباح.

وظل الشيخ الفشنى يردد المقطع حتى بزغ نور الفجر، ثم غادر الصوان على عجل واستقل أول قطار إلى القاهرة، ولكن والحق يقال، كان الشيخ الفشنى هو عمدة فن التواشيح والإنشاد الدينى بعد

الشيخ على محمود، ولكن حظه فى التلاوة كان متوسطا، وعندما بدأ قلد طريقة الشيخ مصطفى إسماعيل، ولكنه عدل عنها بعد ذلك وأصبح له طابعه الخاص، وبعد موت الشيخ طه الفشنى بسنوات طويلة، منحه الرئيس حسنى مبارك وساما تقديرا لدوره المجيد فى خدمة القرآن الكريم.

والغريب أنه فى حياة الشيخ طه الفشنى.. لمع فى مجال الإنشاد الدينى بعض المشايخ الذين أنعشوا هذا الفن وأثروه، منهم الشيخ عبدالسميع بيومى، والشيخ محمد الفيومى، أحد أفراد بطانة الشيخ على محمود، والشيخ محمد الطوخى، وهو علم من أعلام هذا الفن، على الرغم من أنه يعيش بنصف كلى، ثم جاء الشيخ النقشبندى ـ يرحمه الله ـ وقد بهر الناس بأدائه الرائع وبصوته الواضح القادر على الأداء فى كل المقامات، ثم جاء نصر الدين طوبار..

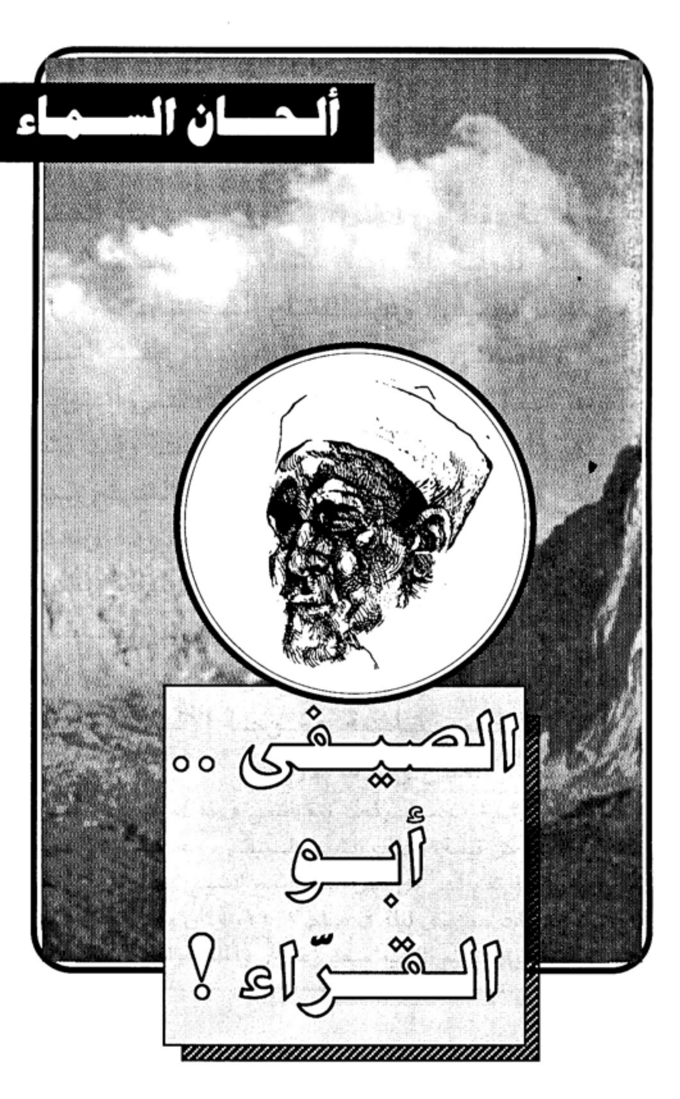
وقد تأثر نصر الدين بطريقة دراويش الطرق الصوفية، وكان الفضل فى ظهوره وانتشاره للفنان زكريا الحجاوى، لم يبق من الرائحة الحلوة القديمة إلا الشيخ محمد عمران، وبوفاته نستطيع أن نقول إن دولة الإنشاد الدينى والتواشيح صارت إلى زوال!

وأغرب شىء أن موت الشيخ محمد عمران آخر العنقود فى مدرسة الشيخ على لم تشر إليه أية جريدة أو مجلة، ولم يذع خبر وفاته فى أية إذاعة، حتى صديقه الحميم جلال معوض سمع الخبر من العبدلله بعد شهر من وفاته، والعبدلله عرف الخبر بالصدفة من قارىء صديق بعد ثلاثة أسابيع من رحيله، وهو دليل أكيد على أن العملة الرديئة تطرد العملة الصحيحة من السوق، وعلى أن الزمن الحاضر فقد موازينه..

والآن أصبح أى شىء مثل كل شىء، وحل مخبأ التليفزيون الذى يطلقون عليه (مسجد التليفزيون)، من باب الدلع، محل جامع السلطان حسن، والأزهر الشريف، وجامع السلطان أبوالعلا، وجامع

السيدة زينب، وجامع الرفاعى، وجامع شيخ العرب أحمد البدوى، وجامع المرسى أبو العباس.

والآن.. لا أحد يدرى إلى أين نسير؟! بعد أن أصبحت التلاوة بالواسطة، والإنشاد الدينى بالحلوانى، وانعدمت الفروق بين المشايخ الذين يسرحون على المقابر، والمشايخ الذين يسرحون فى أروقة التليفزيون، و.. ليس لها من دون الله كاشفة ، والأمر لله من قبل ومن بعد؟!!!


ألحان السماء
الصيفى ..
أبو
القرّاء !

ثلاثة فقط من القراء ظهروا مع بداية العصر الذهبى لدولة التلاوة.. المشايخ: محمد سلامة، ومحمد الصيفى، وعبدالفتاح الشعشاعى، وكان الشيخ الصيفى أولهم، إذ ذاع صيته بعد الشيخ أحمد ندا والشيخ على محمود، وفى نفس الوقت الذى ذاع فيه اسم الشيخ محمد رفعت، وقد نشأ الشيخ الصيفى فى حارة واحدة مع الشيخ ندا، والشيخ سلامة، والشيخ على محمود.. وسكن الحارة قارىء آخر هو الشيخ طه الفشنى.. وعندما لمع اسم الشيخ الصيفى، كان الشيخ ندا يتقاضى جنيها كاملا فى كل ليلة، كان ذلك عام ١٩١٥، والحرب العظمى ناشبة، وموجة الإفلاس تدمر بيوت تجار القطن وملاك الأرض.

وكان الشيخ محمد رفعت يتقاضى فى ذلك الوقت خمسين قرشا عن كل ليلة، وكذلك الشيخ الصيفى، وعندما ارتفع أجر الشيخ ندا، ارتفع أجر كل القراء.. وأصبح الشيخ الصيفى يتقاضى عشرة جنيهات عن كل ليلة فى عام ١٩٣٧، وكان واحدا من أربعة قراء أحيوا ليالى مأتم الزعيم سعد زغلول، والملك فؤاد.

وكان هو القارىء الوحيد الذى رفض أن يقرأ فى قصر فاروق فى أشهر رمضان الخالية، وذهب إليه ناظر الخاصة الملكية يستفسر منه عن سبب الرفض.

وأجاب الشيخ الصيفى: بأن صحته لاتساعده.

وقال ناظر الخاصة: ولكن مولانا يحب أن يسمعك، فرد عليه الصيفى فى هدوء: ولكنى أقرأ فى الراديو، ويستطيع مولانا أن يسمعنى جيدا، وعندما مات الشيخ على محمود، وكان قارىء المسجد الحسينى، أصبح الشيخ الصيفى قارئا للمسجد، وكان للشيخ الصيفى رأى فى القراء، ولكنه كان يحتفظ به لنفسه، ولا يعلنه على الناس.

قال لى ذات مرة : إن أعظم الأصوات التى سمعها فى حياته هو صوت الشيخ محمد القهاوى، والشيخ منصور بدار، ويأتى بعدهما الشيخ مصطفى اسماعيل، سألته: ومحمد رفعت؟! فقال على الفور: صوت محمد رفعت لم يكن كبقية الأصوات تجرى عليه أحكام الناس، لقد كان هبة السماء.. والشيخ الصيفى كان صديقاً للمرحوم الشيخ محمد رفعت حتى مات، وكان هو الوحيد من بين القراء الذى لازمه أربعة أيام كامل قبل أن يموت.

وربح الشيخ الصيفى كثيراً وأنفق كل ما ربحه على أبنائه، وعلى أصدقائه، وله ابن عمل مخرجاً فى السينما هو الاستاذ حسن الصيفى، وعاش ومات فى نفس الحارة التى نشأ فيها مع الشيخ ندا، والشيخ على محمود، والشيخ محمد سلامة، وفى حجرة الاستقبال فى منزله صور كل هؤلاء الاعلام.

ومعها أيضا صورة المرحوم الشيخ سيد درويش، وقال لى الشيخ الصيفى وهو يتأمل فى الصورة جيدا : هذا الرجل ـ يقصد سيد درويش ـ أحدث انقلابا فى فن الموسيقى.. وهذا الرجل ـ

يقصد الشيخ على محمود ـ أحدث انقلابا آخر فى فن الموشحات، وقد مات الشيخ الصيفى فى السبعين من عمره .. وقبل ذلك اعتزل إحياء الليالى، واكتفى بقراءة سورة الكهف فى مسجد الامام الحسين، ولقبه فى دولة التلاوة أبو القراء!

الشيخ القهاوى

سألت الشيخ رفعت مرة قبل وفاته: أى واحد من القراء تحب سماعه أنت يا شيخ القراء؟ وابتسم الشيخ رفعت ـ رحمه الله ـ وأجاب ونفس الابتسامة على شفتيه: لا داعى لهذا الاحراج، إنهم جميعاً مجيدون.

قلت: إذن أيهم أفضل من بين الذين انتقلوا إلى رحمة الله؟ وهنا اعتدل الشيخ محمد رفعت وراح يهز رأسه يميناً ويساراً، وكأنما قد هز السؤال حنينه إلى تلك الأيام البعيدة الجميلة.. أيام زمان.

قال الشيخ رفعت: كلهم كانوا مقتدرين على الأداء، ولكل منهم لون، فلا تستطيع أن تفضل واحداً على الآخر، ولكن كان أجملهم صوتا الشيخ محمد القهاوى، وكان صوته من أجمل الأصوات وأرقها وأعذبها وأشدها حنينا وحنانا وضراعة.

كانت المرة الأولى التى اسمع فيها اسم الشيخ القهاوى، فليست له شهرة الشيخ أحمد ندا، أو الشيخ على محمود، وكانت شهادة الشيخ رفعت وحدها كافية لمعرفة مدى ما كان يتمتع به من جمال الصوت، ولقد ظهر القهاوى فى نفس الفترة التى ظهر فيها الشيخ ندا، والشيخ رفعت، والشيخ على محمود، وغيرهم من الفرسان، ولكن الليالى الطويلة التى سهرها قضت عليه قبل فوات الأوان.

لقد كان رحمه الله ـ فناناً، وكان يعشق الليل، ولم يره أحد فى الشارع قبل الغروب، وربح كثيراً وأنفق ماربحه فى مجالس الاصدقاء.. وكان من أصدقاء الشاعر حافظ إبراهيم، والشيخ

البشرى، والدكتور محجوب ثابت، وكان القراء يرفضون الاشتراك معه فى ليلة واحدة، فقد كان الجمهور يرفض أن يستمع لأحد بعد الشيخ القهاوى، حدث مرة فى حى السلخانة ان قامت معركة فى مأتم كان يقرأ فيه الشيخ القهاوى، مات فيها أربعة، ونقلت عربات الاسعاف أكثر من عشرة إلى المستشفيات، وكان السبب هو الشيخ القهاوى، وسجل محضر البوليس أن المعركة نشبت لأن أحد الفريقين المتنازعين قال كلاماً اعتبره الفريق الآخر ذماً فى الشيخ.

ومات الرجل وهو فى قمة مجده، وكان وقتئذ فى التاسعة والأربعين، ولم يترك خلفه اسطوانة واحدة تسجل صوته، وكان أداؤه غريباً كصوته، يبدأ بطبقة عالية، وبإلقاء سريع، ثم ينتهى إلى عذوبة وطبقة خافتة مع مد طويل عند خاتمة الآية، ومن الذين قلدوا طريقته الشيخ محمود على البنا، مع أن الشيخ البنا لم تتح له فرصة الاستماع إلى صوت الشيخ القهاوى.

وقال لى الشيخ الصيفى، وهو يتحدث عن الشيخ القهاوى.. رحمه الله: إن كل الاصوات التى سمعتها والتى ستسمعها من خشب، وصوته وحده كان من الذهب، ولكن صاحبه انصهر فى بوتقة الليالى.. ومات قبل الأوان!

صوت من الغابة

كان فى جامع الخازندار رجل اسمر اللون يقرأ القرآن بطريقة غريبة كلها شجن تستدر الدموع من العيون التى لم تعرف طعم الدموع قط، هذا الرجل اسمه الشيخ سعيد نور.

وبالرغم من أن الرجل لم يقرأ فى الاذاعة الا مرة واحدة، إلا أنه يتمتع بشهرة تفوق شهرة بعض قراء الاذاعة، وسر شهرة الشيخ سعيد أنه يقرأ القرآن بطريقة تختلف عن الطريقة المعروفة.. طريقة القراءات.

وبهذه الطريقة نفسها كان يقرأ قارىء آخر من قبل هو الشيخ محمود البربرى، وتسرى بين العامة شائعة ان هذه الطريقة هى وحدها الطريقة الشرعية التى يرضاها المحافظون، المهم أن الطريقة التى يقرأ بها الشيخ سعيد نور طريقة عجيبة تثير فى نفوس الناس عواطف شتى.. من الطرب والخشوع والإيمان، وأيضاً تستدر من عيونهم الدموع الحزينة، والسبب الذى من أجله لم يقرأ الشيخ سعيد فى الاذاعة ، أن صوته ـ رغم جماله ـ يكاد لا يصلح للميكرفون،وهناك أصوات غاية فى الرقة والجمال، ولكنها أمام الميكروفون تختلف عن طبيعتها.

ويبدو أنه من بين هذه الأصوات صوت الشيخ سعيد نور، والمحطة الوحيدة التى تذيع له هى محطة المملكة العربية السعودية، وشهر رمضان هو أنسب الشهور لسماعها جيداً قبل السحور بالنسبة لسكان مصر، ولم يعرف عن الشيخ سعيد أنه ابداً حدد أجرا له، وهو يتناول الأجر الذى يدفعه صاحب الليلة دون نقاش، وتتعصب لصوت الشيخ محافظات بأكملها، وعلى رأسها جميعاً محافظة المنوفية، ولعل السبب يرجع إلى أن أغلب سكان حى شبرا ـ حى الشيخ سعيد ـ من قرى المنوفية، وقد قرأ الشيخ مع المشايخ الكبار قبل الحرب الأخيرة، قرأ مع الشيخ على محمود، والشيخ محمد رفعت، وبدأ هو الآخر مثلهم بخمسين قرشاً فى الليلة، ويستمع الشيخ سعيد لصوت الشيخ رفعت، ويفضله على كل الاصوات.

ويعتبر الشيخ الشعشاعى هو أعظم القراء بعد رفعت، وكذلك مصطفى إسماعيل، وأبوالعينين شعيشع، وقد كان الرجل الأسمر يعيش عيشة بسيطة فى شبرا، أما هوايته الوحيدة فكانت سماع الاسطوانات القليلة الباقية للشيخ محمود البربرى!

التلاوة على الركبتين

ولكن يبدو أن الشيخ سعيد لم يقتنع بأن صوته لا يصلح للاذاعة، ولذلك هاجر من مصر واستقر فى الكويت فى فترة الستينيات، وسجلت إذاعة الكويت القرآن الكريم بصوت الشيخ سعيد، وتذيع له مرة كل اسبوع فى فترة الفجر، وقضى الشيخ سعيد بقية حياته فى الكويت حتى اختاره الله إلى جواره، ولكنه ترك ثروة روحية غالية بتسجيلاته للقرآن الكريم، ولكن لسوء الحظ.. كانت اشرطته ضمن الأشرطة التى اختفت من أرشيف الاذاعة خلال فترة احتلال الاشاوس.. وحكومة الكويت تتهم جيش الاشاوس، وحكومة الاشاوس تنفى اتهامات الكويت، وأين ذهبت الاشرطة؟! العلم عند علام الغيوب!

اسمـه الشيخ محمد سـلامـة، ومـات وهو فـوق الثمانين بسنـوات، عــاصر الفترة الـذهبيــة لعصر التـلاوة أيـام الشيخ على محمـود وغيره، ونـال من الشهـرة والمجـد مـا لم ينلـه قـارىء من قبل حتى ولا الشيخ أحمد نـدا ، وذاع صيتـه عن غير طـريق الاذاعـة، فقد ظل أعـواماً طـويلـة يؤمن بأن إذاعـة القـرآن حرام، ولـذلك حـرم من الثـراء الـذى نالـه أمثالـه، ولكنه عـاد فى عام١٩٤٨، وأذاع مـن محطة القاهرة ، غير أن الزمن الطويل الـذى عاشه كان قد أثر فى صحته وفى صـوته، فاضطر إلى القـراءة أمام الميكروفون عدة سنوات.

وقـد بدأ الشيخ سـلامـة يقرأ فى عـام١٩١٠، وكـان يسكن مع المشايخ أحمد نـدا والصيفى، وعلى محمود فى حـارة واحدة فى حى العبـاسيـة، وكـان الشيخ أحمد نـدا أسبقهم فى الظهـور، ثم تبعـه الشيخ ســلامــة على الفـور ولمع نجمــه قبل أن يظهــر الشيخ الشعشــاعى بسنـوات، وســافـر إلى فلسطين بعـد الحرب العظمى الأولى، وقضى فيهـا أعوامًـا ثم عاد إلى مصر من جـديد.. وحـاولت إذاعة فلسطين تسجيل عدة أشرطة له، ولكن محاولاتها ذهبت عبثاً، فقد كان الشيـخ يعتقد ـ كما قلت ـ ان اذاعـة القرآن حرام، ويعتبر

الشيخ سلامة صاحب مدرسة مستقلة فى الأداء، كما أنه كان يتمتع بصوت مميز ليس لـه نظير بين أصوات القراء. وظل يعيش فى نفس الحارة التى نشأ فيهـا مع الشيخ نـدا وعلى محمـود والصيفى، الحارة الضيقة المسـدودة بالعباسيـة والتى هجرها الجميع مـاعدا الشيخ الصيفى والشيخ سلامة.

ولعل الشيخ سلامة هو القارىء الوحيد الذى كان يقرأ جالسا على ركبتيه كأنـه فى حالة ركـوع أثناء الصـلاة، وكان إذا انتقل من طبقـة القـرار إلى طبقـة الجواب هب واقفـاً على ركبتـه فى حـركـة متوافقة مع الطبقة التى ارتفع إليها.

وكان الشيخ سـلامة لا يخفى استنكاره للطريقـة التى يقرأ بها الشيخ مصطفى إسماعيل. وكان يؤمن بأن قـراءة القرآن تحتاج إلى صوت قوى ووقور، أما الصوت «الحلو» فليس مستحبًا فى التلاوة! وكان هذا هـو رأيه أيضاً فى صوت الشيخ عبدالبـاسط عبدالصمد، أما الصـوت المفضل لديـه فكان صوت الشيـخ الصيفى، وكان من رأيه أن صوت الشيخ زاهر «مش بطال!»

وآخر مرة استمعت فيها إلى الشيخ سـلامة كانت فى مأتم والدة الحاج سيد مخيمر بالجيـزة، وحدث أثناء التلاوة أن انصرف بعض الجالسين، وهنـا قطـع الشيخ تـلاوتـه ، وأعطى الحاضرين فى السرادق درساً فى آداب الاستماع إلى القـرآن الكريـم، وعندمـا مات الشيخ محمـد سلامـة، كـان فى حكم المجهول بـالنسبـة للأجيـال الجديـدة، وهى الأجيال التى كـان يطلق عليها الشيخ لقب: أجيـال عبدالحليم حافظ!

استطاع رجل واحد فى دولة القراء أن يظل فى منطقته لا يبرحها، ومع ذلك فقـد وصل إلى الشهـرة وإلى المجد واستطـاع أن يفـرض اسمه على كل لسان.. ذلك هو الشيخ منصور الشامى الدمنهورى،

وفى دولـة القـراء رجـلان لم يبرحـا منطقتيهما أيضـاً، هما الشيخ صـديق المنشـاوى والشيخ محمـد مجد، ولكنهما لم يبلغا مكـانـة الشيخ منصور الشامى من حيث الشهرة والثراء.

نشأ الشيخ منصور وعـاش فى دمنهور وذاع صيتـه من المدينة الصغيرة ومـا حـولها، ولم يلبث أن غادرهـا وهـو فى العشرين من عمره إلى الاسكندرية مسقط رأس سيد درويش..

ذاع صيت الشيخ وأصبح علما على دولـة القراء هنـاك، واتصل فى شبابـه بالمشـايخ محمد رفعـت، وعلى محمود ومنصـور بدار.. واعجب الشيخ محمد رفعت بصـوته وشهـد له بالتفـوق والنبوغ، وقرأ معـه فى ليلة واحـدة فى احتفال كبير بـالاسكندريـة، ومنذ تلك الليلة ومنصور الشامى الدمنهورى يجرى على طريق الشهرة وهو يلهث من الاعياء، فقـد كان يكفى أن يقـرأ الشيخ رفعت مع قارىء صغير حتى يصبح اسم الأخير على كل لسان.

وفى عـام١٩٤١ عين الشيخ منصـور قـارئا لمسجـد سيـدى أبى العبـاس المرسى بـالاسكـندرية.. وكـانت الصحـراء المحيطـة بالمدينـة تشهد لونا من الصراع الـرهيب بين جيوش هتلر الـزاحفة والجيش البريطـانـى الـذى انطلق فى الصحـراء العـريضــة نحـو الاسكندريـة. ومرت لحظـات حرجـة وخطيرة على المدينة والجنـود الألمان على بعد خمسـة عشر ميلا منهـا.. ومدافعهم الثقيلـة البعيدة المدى تضرب أطراف المدينة ليل نهار.. وغادر الانجليز المدينة، ومن ورائهم سكـانها جميعاً، ولكن الشيخ منصـور رفض ان يغادرهـا وأصر على البقاء بجوار سيدى المرسـى ليقرأ داخله القرآن. وانهزم رومل وانتحـر هتلر. وبقى الشيخ منصـور يقرأ فى مسجـد سيدى أبى العباس.

وفى عام١٩٤٥ قـرأ الشيخ منصور لأول مرة فى الاذاعـة وبأجر خمسـة جنيهـات، ثم لم يلبث أن ارتفع أجـره إلى عشرة ثم خمسـة

عشر جنيهاً عن كل إذاعة، وكان يذيع فى نفس الوقت من محطات لندن وسوريا والشرق الأدنى وباكستان، وقد توفى الشيخ منصور إلى رحمة الله منذ زمن طويل، ولكن صوته القوى وطريقته الفريدة فى الأداء لا يزال صداها يرن فى أسماع الزمان، ومع انه لم يشتهر كثيراً ولم يحقق من احتراف التلاوة ما حققه غيره من القراء، إلا أنه كان على عكس زميله الشيخ سلامة قانعاً بما وصل إليه، وكان يردد دائماً مقولة تعبر عن رضائه بما وصل إليه: الصوت هبة من عند الله، والهبة هى نوع من الرزق، والله سبحانه وتعالى قسم الارزاق بين الناس، وفضل بعضهم على بعض. وكان يقول: إن الشيخ رفعت رزقه كبير، ورزقى متوسط ، وهناك آخرون رزقهم قليل، وعلى كل مرزوق ان يرضى برزقه!

وكان شديد الاعجاب بصوت الشيخ مصطفى إسماعيل، ويعبر عن اعجابه بقوله: إن الله سبحانه اعطاه حلاوة فى الصوت، وابداعاً فى الاسلوب، وإنه عطية السماء لدولة التلاوة، ولم يكن له نظير فى الماضى ولن يكون له مثيل فى المستقبل! ولعل الشيخ منصور الشامى الدمنهورى من القراء القلائل الذى كان يحرص الاقباط على سماعه، فقد كانت طريقته فى الأداء تقترب من أداء ترتيل المنشدين فى الكنائس، رحم الله الشيخ منصور الشامى الدمنهورى، إحدى القمم الشامخة فى دولة التلاوة!

●●●

فى مأتم المغفور له محمود فهمى النقراشى، جلس كبار رجال الدولة وقتئذ يستمعون فى خشوع إلى آيات الذكر الحكيم، يرتلها رجل فى الخامسة والأربعين من عمره ترتيلاً حسناً، وفى صوته نبرة غريبة تحرك الشعور وتهز الوجدان.. وسأل رئيس الحكومة وقتئذ عن اسم هذا القارىء، فقالوا له: انه عبدالرحمن الدروى، وقال رئيس الوزراء إبراهيم عبدالهادى: ولماذا لا يقرأ فى الاذاعة؟

ومن ذلك الحين ظل الشيخ عبدالرحمن يقرأ فى إذاعة القاهرة، وبدأ بأجر خمسة جنيهات عن كل اذاعة، ثم ارتفع أجره إلى عشرة جنيهات، ثم خمسة عشر جنيهاً، وقفز أجره فى الليلة الواحدة إلى ثلاثين جنيهاً، ثم إلى خمسين جنيهاً، وعاش الشيخ الدروى متنقلاً بين القاهرة وقريته الصغيرة دوره فى المنوفية، وقليلون يعلمون ان الشيخ الدروى كان يعمل مأذوناً بقريته، وأن كل الزيجات فى منطقته تتم على يديه، لأن الأهالى فى تلك المنطقة يتفاءلون بالشيخ الدروى ويعتقدون ان السعادة الزوجية تصاحب زبائنه.

والشيخ الدروى يتمتع بصوت يصفه خبراء الاصوات بأنه متوسط، ولكنه رغم هذا يتمتع «بقرار» سليم ونبرة غريبة تهز النفوس.. ويفضل الشيخ الدروى صوت الشيخ محمد رفعت وصوت الشيخ عبدالفتاح الشعشاعى من القراء الذين سبقوه، ويصف صوت الشيخ الشعشاعى بأنه اعظم الأصوات.

وفى اغلب الليالى كان الشيخ الدروى يسهر فى الليالى التى يقيمها أهل منطقته فى المنوفية، وهو لا يتقاضى أجراً من أهل القرية على الاطلاق، كما انه لا يتقاضى منهم أجراً على قيامه بتحرير عقود الزواج، وهو يقول : ان النبرة الغريبة التى يتميز بها صوته يتميز بها كذلك جميع أهل القرية. وهى نبرة شجية حزينة، ربما علقت بأصوات أهل القرية من الواقع الحزين الذى تعيش فيه القرية الصغيرة الواقعة على شاطىء الرياح المنوفى الحبيب، وإذا كان الشيخ الدروى قد ذاع صيته بعد وصوله إلى ميكروفون الاذاعة، إلا انه كان يرفض إحياء الليالى فى المناطق النائية، ولكنه كان حريصاً على تلبية الدعوات التى تصله من أهالى المنوفية والقليوبية والغربية. كما كان حريصاً على الاشتراك فى ليالى مولد السيد أحمد البدوى.

وكان يتردد أحياناً على مسجد السيدة نفيسة ليصلى العشاء فى ركن منعزل، ولكنه كان يضطر إلى التلاوة إذا تعرف المصلون عليه. وكان يشعر بسعادة لا مثيل لها وهو يقرأ للناس الطيبين الذين يتصادف وجودهم فى المسجد ذلك المساء، وعاش الشيخ الدروى حتى مات، وله هواية واحدة هى الاستماع إلى تسجيلات الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت، وحضور الليالى التى يحييها الشيخ عبدالفتاح الشعشاعى. وكان متيماً بصوت الشيخ عبدالعظيم زاهر، ومعجباً بصوت الشيخ محمود عبدالحكم!

حكاية الثلاثة الكبار

فى دولة التلاوة أصوات لم ترتفع إلى القمة التى ارتفع إليها محمد رفعت، وأحمد ندا، ومصطفى إسماعيل، ولكنها استطاعت أن تدخل التاريخ، وأن تنقش اسمها على جدار الزمن، وعلى رأس هؤلاء ثلاثة من أعظم القراء ، كان لكل منهم لون خاص ومذاق مختلف.

الشيخ عبدالعظيم زاهر والشيخ أحمد سليمان السعدنى والشيخ محمد فريد السنديونى، أما الشيخ عبدالعظيم زاهر فقد كان نسيجا وحده، لم يقلد أحدا، ومن الصعب تقليده، وصوته علامة من علامات رمضان كما صوت الشيخ محمد رفعت، وقد حفظ القرآن، ثم انطلق يقرأ فى المآتم وفى الحفلات الدينية، واشتهر بسرعة البرق، وفرض نفسه على دولة التلاوة كواحد من نجومها، ولكن طريقته الخشنة فى التعامل مع الناس والحياة، ربما هى السبب فى تعثره وعدم وصوله إلى القمة، ولكن عدم وصوله إلى القمة لاينفى أنه كان صاحب

صوت من أجمل الأصوات التى سمعناها فى العصر الحديث، وصاحب طريقة فى الأداء ليس لها شبيه على طول الزمن.

كان صاحب صوت مقتدر على الأداء الممتاز فى جميع المقامات، وكما كان مقتدرا فى طبقة الجواب وجواب الجواب، كان مقتدرا أيضا فى طبقة القرار، وهى ميزة كبرى لم يظفر بها إلا عدد قليل من القراء، على رأسهم الشيخ محمد رفعت، وبالرغم من شهرته العريضة وطريقته الفذة، إلا ان أحدا من القراء الجدد لم يجرؤ على تقليده، رغم أن كثيرين قلدوا الشيخ محمد رفعت وعلى رأسهم الدكتور هيبة والشيخ أبو العينين شعيشع، ولكن عبدالعظيم زاهر لم يقترب من منطقته أحد حتى هذه اللحظة.

يذكر أن أحد أعيان حى «المدبح» طلبه للقراءة فى إحدى الليالى فطلب ثلاثين جنيها أجرا عن الليلة، وأمهله مدة ساعتين للحضور إليه ودفع المبلغ مقدما، وبشرط إحضار سيارة لتوصيله إلى المأتم وإعادته إلى البيت آخر الليل، وكان مبلغ الثلاثين جنيها فى ذلك الزمان مبلغا جسيما، حيث كان فدان الأرض فى المنوفية بثلاثين جنيها، وحاول أصحاب الليلة الاستعانة بقارىء آخر ولكنهم فشلوا، فاضطروا مكرهين إلى الاستعانة بالشيخ عبدالعظيم زاهر، ونفذوا جميع شروطه، منحوه المبلغ مقدما واصطحبوه معهم فى سيارة إلى السرادق، وبعد أن أحيا الليلة، وكان صاحب الحفل سميعا كبيرا عاصر مشايخ كباراً مثل الشيخ أحمد ندا والشيخ القهاوى والشيخ الفيشاوى وتقدم الرجل السميع إلى الشيخ زاهر وصافحه بشدة ونقده ثلاثين جنيها أخرى، وتقدم أحد أبناء الرجل ولفت نظر أبيه إلى أن الشيخ تقاضى أجره مقدما، وأجاب الرجل فى هدوء: أعلم ذلك، ولكن الشيخ زاهر يستحق ضعف

المبلغ الذى اتفق عليه، إن صوته من نسمات الجنة.

وقرأ الشيخ زاهر فى سرادق عابدين داخل القصر الملكى فى ليالى رمضان المباركة، وعندما قرأ فى إمارة عجمان أصدرت طابع بريد يحمل صورته، وظل الشيخ زاهر يقرأ مع الكبار وينافسهم حتى توفاه الله.

ومنذ فترة وبعد وفاته بوقت طويل، منحه الرئيس مبارك وساما فى الاحتفال الرسمى بليلة القدر، رحم الله الشيخ عبدالعظيم زاهر، الذى كان صوته من عجائب دولة التلاوة، ومن أعذب الأصوات التى استمعنا إليها فى الحياة!!

مجرم حرب !!

لعلها المرة الأولى والأخيرة التى تعرضت فيها تقارير رجال المخابرات البريطانية خلال الحرب لقارىء متهمة إياه بأنه يتعامل مع الأعداء، ففى بداية الحرب الأخيرة قالت مخابرات الحلفاء: إن الشيخ أحمد سليمان السعدنى القارىء المعروف يذيع كل مساء من محطة برلين العربية، وقالت التقارير أيضا: إن إذاعة الأخبار باللغة العربية بعد التلاوة مباشرة، وقالت التقارير أيضا: إن عددا كبيرا من الناس يستمع إلى إذاعة برلين ليتمكن من سماع الشيخ السعدنى، وسمع مصطفى النحاس باشا ـ وكان رئيسا للوزراء ـ بالقصة، فأرسل فى استدعاء الشيخ، وعندما دخل عليه مكتبه، رفض النحاس أن يصافحه قائلا له بلهجته المعروفة: لا.. ده مش كلام.. أنت راجل بتتعامل مع المحور.

وشرح الشيخ السعدنى للنحاس كل شىء، واقتنع النحاس، فمد يده وصافحه وقال له: الآن اطمأن قلبى.

واصل الحكاية أن بعثة من الاذاعة الألمانية وصلت إلى مصر فى عام١٩٣٧، لتسجيل بعض الأغانى والبرامج العربية، لإذاعتها فى

راديو برلين، وقضت البعثة عاما سجلت فيه كل شيء، ثم رأت أن تسجل شيئا من القرآن، فلم يتسع وقتها لأكثر من عشرة تسجيلات كلها للشيخ السعدنى، ونشبت حرب فى عام١٩٣٩، واستغلت برلين الفرصة فراحت تذيع شرائط الشيخ السعدنى كل مساء من محطتها العربية. ومن هنا جاء اتهام المخابرات الانجليزية للشيخ السعدنى بأنه من عملاء المحور.

وقد بدأ الشيخ السعدنى تلاوة القرآن الكريم عام١٩٢٥، وباجر قدره خمسون قرشا فى الليلة، وفى مدينة منيا القمح مسقط رأسه. وفى عام١٩٣٠ نزح إلى القاهرة حيث أصبح صديقا للشيخ رفعت والشيخ على محمود، وفى عام١٩٣٥ أصبح قارئا لمسجد سيدى الشعرانى، وبدأ نجمه يلمع خلال الحرب من محطة برلين العربية ومحطة القاهرة.

والشيخ السعدنى كان فنانا يحب الاستماع إلى صوت الشيخ محمد رفعت والشيخ على محمود ، وكان أديبا أيضا وله كتاب (فى خدمة القرآن)، عرض فيه لطريقة بعض قدامى القراء، وشرح فيه مذاهبهم فى التلاوة وطريقتهم فى الأداء.

وعندما كان الشيخ السعدنى فى الثانية عشرة من عمره، كانت الثورة المصرية عام١٩١٩ تجتاح أرض مصر، وكانت المراكز الكبرى تقيم فى كل يوم مأتما لشهدائها، وكان مركز منيا القمح يقيم فى كل يوم أكثر من مأتم يقرأ فيه أكثر من قارىء شهير.

وكان الشيخ السعدنى يقطع كل مساء عشرة كيلومترات من قريته إلى منيا القمح ليستمع إلى المشاهير الذين جاءوا ليرتلوا القرآن، وكان يجلس الساعات الطوال على الأرض خلف السرادق ليسمع بعيدا عن العيون، فلم يكن دخول السرادق مباحا لأمثاله من الصبية الصغار، وذات مساء بكى الشيخ السعدنى وهو

يستمع إلى الشيخ البربرى وود لويستطيع أن يصافحه ويقبل يده، ولم تتحقق أمنيته قط، وحتى عندما أصبح الشيخ السعدنى رجلا وجاء إلى القاهرة، كان الشيخ البربرى قد انتقل إلى رحمة الله.

فلسطين .. وداعا !!

ظهر الشيخ فريد السنديونى فجأة ثم اختفى فجأة، وظل عشر سنوات طوالا واسمه يدوى كالطبل فى أنحاء البلاد العربية، وكان ظهوره فى بداية عام١٩٣٨، وفى قريته سنديون بالمنوفية، ومن ثم ذاع صيته فى أنحاء المنوفية ثم فى المديريات المجاورة، ثم أصبح الشيخ فريد علما فى مدينة القاهرة.

وفى عام١٩٣٩ أذاع الشيخ لأول مرة من إذاعة القاهرة، وفى عام١٩٤١ كانت الصحراء تشهد حربا عنيفة، وجيوش المحور تمسح رمال الصحراء الغربية بجيوش الحلفاء وأصبح لإذاعة الشرق الأدنى، كان مقرها فلسطين، أهمية بالغة، فاستدعت السلطات الانجليزية الشيخ فريد ليقرأ فيها بصورة دائمة، وسافر الشيخ فريد إلى فلسطين بمرتب مائتى جنيه فى الشهر، وفى عام١٩٤٥ قفز هذا الرقم إلى خمسمائة.

وفى بداية عام١٩٤٧، وكان قد لاح فى الأفق أن الأرض المقدسة ستخضب بالدماء.. استغنت إذاعة الشرق الأدنى عن خدمات الشيخ، فغادرها عائدا إلى القاهرة، وقيل يومئذ أن خلافا قد نشب بين الشيخ وبين مدير الاذاعة الانجليزى حول تصرفات غريبة لم يرض عنها مدير الاذاعة، وراح الشيخ يذيع من محطة القاهرة فترة قصيرة، ثم لم يلبث أن عاد إلى فلسطين مرة أخرى، وكان ذلك فى نهاية١٩٤٧، واتخذ من مدينة يافا مقرا له.

ولكن القاهرة التى علمته وانضجته انكرته عندما عاد، ذهب إلى الاذاعة فى عام١٩٤٩، ليقرأ من راديو القاهرة، ولكن المسئولين رأوا

عرضه على لجنة رسمية للامتحان!! امتحان؟! قارىء مشهور فى العالم العربى احترف القراءة عشرين عاما، ثم بعد ذلك كله امتحان؟! وسكت الشيخ السنديونى ولم يتكلم، وفى يوم الامتحان ذهب إلى الاذاعة ودخل الاستديو، بينما كان فى حجرة مجاورة عدة أشخاص أشبه بمحلفين، فى انتظار اصدار حكمهم، له..أو عليه.

وكان بينهم المعمم الذى يفهم سر المهنة، والذى ليس له من موهبة إلا صلة وثيقة بالقصر الملكى الذى كان يحكم البلاد، واعطيت الاشارة للشيخ السنديونى لكى يقرأ، وبهت الجميع عندما ارتفع صوت الشيخ يلعلع بالغناء، ثم خرج صائحا من الاستديو: مادام عاوزين امتحان أنا مستعد أمتحن فى الغناء، إنما فى القراءة مستحيل.. أنا قارىء من عشرين سنة وصوتى بيلعلع من إذاعات العالم! ثم خرج الشيخ من الاذاعة ولم يعد إليها قط.. وقضى عاما بلاعمل، ثم أراد أن يحتج على هذا الوضع الغريب، وكان احتجاجه فريدا ولاذعا، فقد افتتح الشيخ مقهى فى شبرا وجلس الشيخ خلف البنك يعد المارك، ويعد المشاريب للزبائن الكرام، وذات ليلة باردة من ليالى عام١٩٥٢ مات الشيخ السنديونى داخل مقهاه.

ولقد كان صوته غريبا، يقطر الما وحزنا، ومرارة كحياته التى لم تستمر طويلا، فقد مات الشيخ السنديونى فى سن الأربعين! كان صوته يشبه صوت الناى الحزين، صوت مصرى عريق، فيه صرخات وأنات وزفرات الفلاحين الذين عاش معهم وتربى بينهم، وانتهى إليهم آخر الأمر جثة بلا روح، فقد أوصى قبل موته بأن يدفنوه على شاطىء الرياح فى سنديون!!

وفى يافا كان بيته ندوة لأهل الفن، وكان أبرز مافيه حبه الشديد للمعرفة والثقافة وتعلقه الشديد بالمثقفين، وفى تلك الندوة كان يسهر الشاعر الكاتب المرحوم عبدالرحمن الخميسى وسامى

داود وعميد الامام وسليم اللوزى، وتردد عليها أيضا عباس محمود العقاد وإبراهيم المازنى خلال زيارتهما الخاطفة لفلسطين، وإبراهيم الشنطى صاحب جريدة الدفاع فى يافا الذى كان من أصدقائه هو وناصر الدين النشاشيبى، وسعيد التلاوى صاحب الفيحاء فى دمشق، وسعيد فريحة صاحب الصياد فى بيروت، وعندما مات رثته صحف العواصم العربية كلها ماعدا صحف القاهرة، فقد نشرت خبر وفاته فى سطور.

وفى بداية عام١٩٤٨ قبل بدء الحرب الفلسطينية بأشهر قليلة، كان الشيخ يقرأ لآخر مرة له فى فلسطين، وفى مدينة القدس، وكانت المناسبة وفاة عربى كبير يسكن المدينة التى سقطت فيما بعد فى يد إسرائيل، وفى تلك الليلة نشب قتال وحشى بين شباب جمعية الأراجون الارهابية والشباب العربى، وأصيب الشيخ يومها فى رأسه، فحزم امتعته فى المساء، وعاد إلى القاهرة بقطار الفجر، وبعد أن خمدت النار فى فلسطين، ظل الشيخ يحن إلى الأرض المقدسة التى شهدت مجده، فطار من جديد إلى عمان، وظل هناك حتى قدر له أن يقرأ فى مآتم الملك عبدالله، ثم سافر إلى سوريا وإلى لبنان وقضى فى كل منهما زمنا.

ثم عاد إلى القاهرة ليستقر فى حفرة على النيل.


ألحان السماء
من الشيخة
أم محمد
إلى الشيخة
كريمة العدلية

بموت السيدة نبوية النحاس فى عام١٩٧٣ انطوت صفحة رائعة من كتاب فـن التلاوة والانشاد الدينى فى العصر الحديث، فقد كانت السيـدة نبوية هى آخر سيـدة مصريـة ترتل القـرآن الكـريم فى الاحتفـالات العامـة، وفى المناسبات الدينيـة، وفى المآتم والأفراح. وكان الاستماع إليهـا مقصوراً على السيـدات، وكان بمسجد الحسين قسم خـاص للسيدات يـدخلن إليه من باب خاص. وكانت السيدة نبوية هى واحدة من ثـلاث سيـدات اشتهـرن فى نفـس الـوقت: السيـدة كريمة العدلية والسيدة منيرة عبده.. والسيدة نبوية.

أما السيدة كريمة العدلية فهى أشهرن جميعاً..

ظهـرت فى عصر الشيـخ على محمـود والشيخ منصـــور بـدار، ووصل صـوتها للعـالم العربى كلـه من خـلال الميكـروفون أيـام الاذاعات الأهليـة، وعاشت السيدة كريمـة حتى تم تمصير الاذاعة، وظللت تذيع القرآن الكريم بصـوتها العذب إلى فترة الحرب العالمية الثانيـة. وكانت هناك قصة حب شـديد وعجيب بين كريمة العـدلية والشيـخ على محمود. كـانت تعشق صوته وطريقتـه الفذة فى الأداء، وكان هو يفضل الاستماع إليها ويفضل صوتها على أصوات بعض القراء، وكثيراً ما كـانت تصلى الفجر فى الحسين فى الركن المخصص

للسيدات لكى تتمكن من سماع صوت الشيخ على محمود وهو يرفع آذان الفجر بصوته الذى ليس له مثيل. ولم يسبق الشيخة كريمة العدلية واحدة من السيدات اللاتى احترفن ترتيل القرآن وإنشاد المدائح النبوية إلا السيدة أم محمد، التى ظهرت فى عصر محمد على، وكان من عادتها إحياء ليالى شهر رمضان الكريم فى حرملك الوالى.

كما كانت تقوم بإحياء ليالى المآتم فى قصور قواد الجيش وكبار رجال الدولة. وكانت موضع إعجاب الباشا محمد على، وحصلت على العديد من الجوائز والهدايا، وأمر محمد على بسفرها إلى اسطنبول لإحياء ليالى شهر رمضان المعظم فى حرملك السلطانة. وماتت الشيخة أم محمد قبل هزيمة محمد على ومرضه، ودفنت فى مقبرة أنشئت خصيصاً لها فى الإمام الشافعى، وجرت مراسم تشييع الجنازة فى احتفال عظيم.

ولكن الشيخة منيرة عبده لم تحقق الشهرة التى وصلت إليها كريمة العدلية، بالرغم من وصول صوتها إلى العالم العربى عبر ميكروفونات الاذاعات الأهلية المصرية، وعندما قرأت أول مرة فى عام ١٩٢٠ كانت فتاة صغيرة فى الثامنة عشرة من عمرها، نحيفة وضعيفة وكفيفة أيضاً، وأحدث ظهورها ضجة كبرى فى العالم العربى، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت الشيخة منيرة نداً للمشايخ الكبار، وذاع صيتها خارج مصر، وتهافت عليها جميع إذاعات مصر الأهلية. وفى عام ١٩٢٥ عرض عليها أحد التجار الأثرياء التوانسة إحياء شهر رمضان فى قصره بصفاقس وبأجر ألف جنيه، وهو مبلغ يساوى بحساب النقد هذه الأيام مائة ألف جنيه.

ولكن الفتاة الصغيرة الكفيفة لم تستطع تحقيق أمنية الرجل

الثرى الطيب، فلم يكن من الرجل الطيب الا الحضور إلى القاهرة وقضاء شهر رمضان فى مصر، وعندما انشئت الاذاعة الرسمية فى القاهرة، كانت الشيخة منيرة فى طليعة الذين رتلوا القرآن من خلال موجاتها، وكانت تتقاضى خمسة جنيهات، فى الوقت الذى كان يتقاضى فيه الشيخ رفعت عشرة جنيهات، ومع أن الشيخة منيرة عبده كانت على علاقة طيبة بكل القراء، إلا انها كانت تفضل الشيخ محمد الصيفى على الجميع، وكانت تعتبره شيخ القراء جميعاً.

وقبل الحرب العالمية الاخيرة بقليل أفتى بعض المشايخ الكبار بأن صوت المرأة عورة، وهكذا اختفت الشيخة منيرة من الاذاعة، وتوقفت إذاعة لندن وإذاعة باريس عن إذاعة إسطواناتها خوفاً من غضب المشايخ الكبار، وبالرغم من تدفق المئات من خطابات الاحتجاج من المستمعين على ابعاد الشيخة منيرة، إلا أن الاذاعة لم تستطع أن تفعل شيئاً، فقد قضى الأمر بعد فتوى المشايخ الكبار، واعتكفت الشيخة منيرة فى آخر أيام حياتها فى بيتها تجتر ذكريات الأيام الجميلة القديمة الحافلة، وعاشت حتى ماتت وهى تمارس هوايتها الوحيدة، وهى الاستماع والاستمتاع بأصوات العمالقة الذين انتقلوا إلى رحمة الله، فقد كانت تحتفظ لهم بمجموعة كبيرة من الاسطوانات التى تحفظ أصواتهم.

وكانت تردد دائماً أمام الاصدقاء والمترددين عليها: إن الزمن يفقد الأصوات بعض خصائصها الجميلة، ولذلك فهى تفضل الاستماع إلى أصوات المشايخ الكبار عندما كانوا فى فترة الشباب.

والحقيقة أن مصر كانت تضم العشرات من السيدات القارئات غير كريمة العدلية ومنيرة عبده ونبوية النحاس. فقد كانت إلى جانب هؤلاء السيدات الشهيرات الكثيرات من السيدات اللواتى يمارسن هذه المهنة فى احياء القاهرة الشعبية وفى الريف.

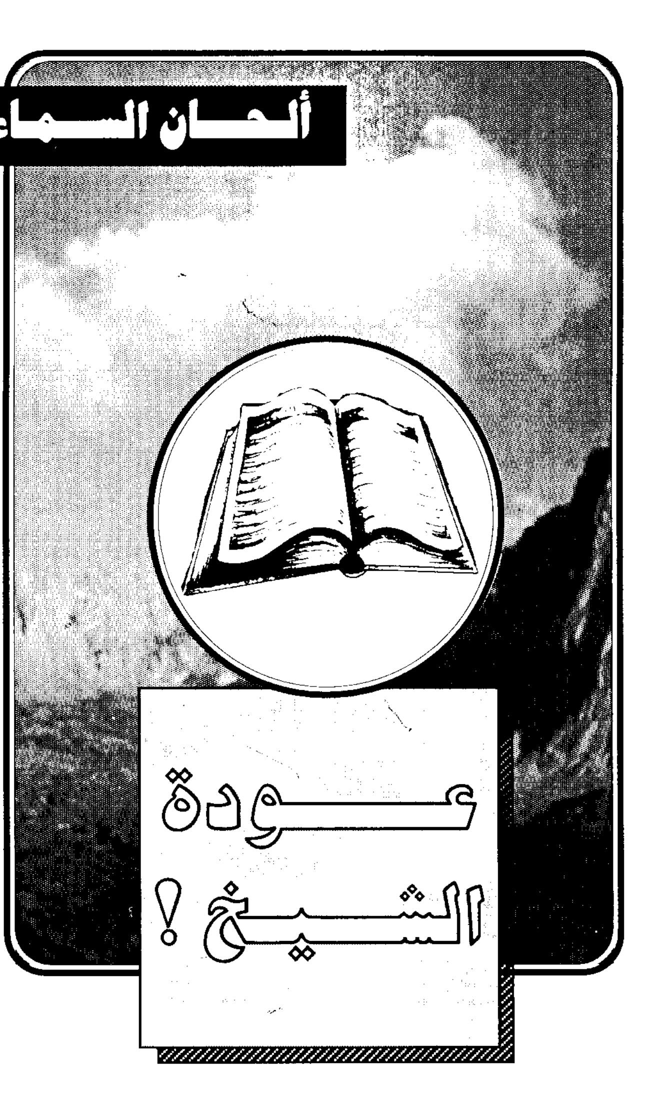
والسبب أنه كانت للأسر المصرية حتى بداية القرن تقاليد ظلوا متمسكين بها حتى الربع الأول من هذا القرن، كانت ليالى المآتم تقام ثلاثة أيام للرجال وثلاثة أيام للنساء، وكان لابد من وجود قارئات لإحياء ليالى المآتم عند السيدات، وفى البداية لم يكن هؤلاء السيدات يحترفن مهنة ترتيل القرآن، ولكنهن كن يحترفن مهنة النياحة، أو المعددات كما كان يطلق عليهن أبناء الشعب، وأشهر هؤلاء كانت الحاجة دربالة بالجيزة، وعندما كانت تحترف النياحة كانت قادرة على أن تستدر الدمع من عيون الصخر، ثم احترفت قراءة القرآن فترة من الوقت، ولكنها لم تستمر طويلاً، فقد أصيبت بمرض خبيث، وماتت وهى فى الخمسين من العمر.

وكانت هناك الحاجة خضرة فى المنوفية، والست عزيزة فى الاسكندرية، والست رتيبة فى المنصورة، والشيخة أم زغلول فى السويس. والغريب أنهن جميعاً كن يحترفن النياحة فى المآتم قبل أن يتحولن إلى قارئات. والنياحة مهنة معروفة فى مصر، ويبدو أنها ميراث من قدماء المصريين، الذين كانوا يحتفلون بالميت أربعين يوما بالتمام والكمال.

وكان للنياحة فى مصر نجوم أشهر من نجوم السينما حتى منتصف القرن الحالى.. وهذه المهنة نفسها.. النياحة.. كانت معروفة فى الجزيرة العربية أيام الجاهلية وصدر الاسلام، وكان يحترفها ابن سريج فى المدينة، ومعبد فى مكة قبل انتقالهما إلى الطرب والغناء، ولكن أشهرهم جميعاً فى التاريخ المصرى هى الشيخة أم عبدالسلام. وقد ظهرت فى العصر المملوكى، ثم تزوجت من شيخ مجذوب كان يحترف مهنة كتابة الأحجبة.. وبعد أن استولى على ثروتها، هرب منها، ورفعت الأمر إلى المملوك الوالى، ولكنها اكتشفت أنه كان على علاقة بالوالى المملوك وأنه كان كاتب

الأحجبة الرسمى للبلاط المملوكى، فأصابها الجنون، ومزقت ملابسها، وراحت تجوب حوارى القاهرة وأزقتها عارية كما ولدتها أمها، ورفع الناس شكواهم ضدها إلى المملوك الوالى، فأمسك بها وضربها وحبسها، وعندما أطلقها من محبسها عادت إلى سيرتها الأولى، فانقض عليها بعض الحرافيش ورجموها بالحجارة حتى ماتت. ودفنت الشيخة أم عبدالسلام فى مقابر الصدقة، وذهبت غير مأسوف عليها.

والآن ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين، اختفت هذه الظاهرة تماماً فى مصر، وربما فى البلاد العربية أيضاً، ولكنها موجودة فى بلاد جنود شرق آسيا، وقد استمعت منذ عدة أعوام فقط إلى قارئة فى الفلبين، واستمتعت إلى قارئة ماليزية فى تايلاند، وكانت تقرأ للرجال، ولكن من وراء ستار!


ألحان السماء
عودة الشيخ!

الشيخ أبو العينين شعيشع من الشيوخ المتكلمين، أحيانا يقول كلاما صحيحا، وأحيانا يقول كلاما من النوع المضروب، ومن كلامه الفارغ ما صرح به لمندوب جريدة يومية بأن عسكر يوليو منعوه من القراءة فى الإذاعة، ولما سأله المحرر: ليه؟ أجاب قائلا: لأننى كنت قارىء الملك قبل الثورة..

ويؤسفنى أن أقول لكم - فى شهر رمضان المبارك - بأن كل ما نطق به الشيخ فى هذا الحديث كذب فى كذب!

فهو أولا وقبل كل شىء لم يكن قارىء الملك، ولكنه أحيانا كان يقرأ فى السرادق الملكى داخل قصر عابدين فى شهر رمضان، وكان يشترك مع عشرات من كبار القراء فى ذلك الزمان، وإذا كان أحد القراء يستحق هذا اللقب « قارىء الملك » فهو المرحوم الشيخ مصطفى إسماعيل، الذى كان قارىء الملك بحق، ثم أصبح قارئا للثورة، وعلى أساس قاعدة ثابتة ولا تتغير وهى خياركم فى الجاهلية.. خياركم فى الإسلام ! وهى ليست كلمات كذب فقط، ولكنها نكران للفضل وعدم أعتراف بالجميل، وهى صفحات كنت لا أود أن أصف بها الشيخ أبو العينين شعيشع الذى تعرفت به وأنا شاب صغير قبل الثورة بعدة سنوات ، يومها كان الشيخ

شعيشع أحد الأصوات العظيمة فى دولة التلاوة، وقد أحدث فى بدايته ضجة كبرى فى مصر، وفى العالم العربى، لأنه كان أقرب الأصوات إلى صوت الشيخ محمد رفعت، ولذلك وقع الإختيار عليه لتكملة أشرطة الشيخ محمد رفعت التى نال منها الزمن. وقام بهذا العمل الجليل مع زميله الأستاذ الدكتور أحمد هيبة الذى كان يعمل أستاذا فى كلية الزراعة، ولا يستطيع أحد أن يتبين الفرق بين صوت الشيخ شعيشع والشيخ محمد رفعت فى تلك الإسطوانات والأشرطة إلا عبقرى مثل محمد عبد الوهاب، أو سميع قديم وخبير مثل كمال النجمى.

ثم حدث فى بداية الستينيات أن أصيب الشيخ بمرض خطير أصاب أحباله الصوتية فلم يستطع القراءة، ولأن الدنيا كانت بخير لاتزال، فقد اتفق الرأى لدى عسكر يوليو على إذاعة أشرطة الشيخ القديمة، مع الاستمرار فى صرف نفس المكافأة المالية التى كان يتقاضاها وهو قادر على العطاء، وظل العمل ساريا على هذا الأساس، وحتى انتقل عبد الناصر إلى رحاب الله.

هذه هى قصة الشيخ شعيشع مع عسكر يوليو كما حدثت بالتمام والكمال، وإذا كان هذا هو نوع الكلام البطال الذى يقوله الشيخ شعيشع، فهناك نوع آخر من الكلام صرح به فى رمضان قبل الماضى لمندوب الإذاعة البريطانية فى لندن، عندما سأله عن السر فى عدم ظهور أصوات جديدة مميزة فى دولة التلاوة، فأجاب الشيخ بأنها ظاهرة غريبة ومريبة أيضا، وكشف الشيخ شعيشع عن سر لم نكن نعلمه. فقد مسح الشيخ مصر كلها من أسوان وحتى الاسكندرية بحثا عن أصوات جديدة وواعدة وبتكليف من وزارة الأوقاف، ولكنه لم يعثر على صوت واحد يبشر بالخير، ولما سئل عن السر وراء هذا العقم الشديد، أجاب الشيخ:

إن السبب فى رأيه شخصيا هو الأكل البلاستك الذى يتعاطاه المصريون منذ عدة سنوات.. وهذا القول من الشيخ شعيشع على ما يحمله من سخرية هو القول الصحيح.. اختفت الفراخ البلدى، وأصبح السمن البلدى أندر من المخدرات، والعسل الأبيض تحول إلى مياه مخلوطة بالسكر، والعيش البلدى الحلو حل محله العيش الأسمنت، والسمك النيلى يحمل سمومه ويسبح بين الأمواج، واللحم الفاسد يبنى العمارات على النيل للسادة المستوردين.. ويبنى المدافن للملايين من أبناء مصر فى صحراء الهرم وفى صحراء الفيوم، ناهيك عن فراخ المزارع المحقونة بحبوب منع الحمل، وسمك المزارع الذى يتغذى من المجارى.

• والطعام الفاسد ينتج أحبالا صوتية فاسدة، والنتيجة كما نشاهدها اليوم ونلمسها جميعا، سواء فى مجال الغناء أو فى مجال التلاوة، وصار التقليد هو العملة السائدة.

الدكتور نعينع مثلا هو الصوت المفضل الآن لدى أجهزة الإعلام، مع أنه نسخة مقلدة من الشيخ مصطفى إسماعيل. وهناك عشرات من القراء يقلدون الشيخ الطبلاوى، والباقون لا يقلدون أحدا لأنهم لا يستطيعون، ولا يقولون شيئا لأنهم ليسوا مؤهلين وليسوا قادرين، وأصبحت المسائل سهلة، لأن كل مايذيعه التليفزيون بالذات من أصوات فى مجال التلاوة هى أصوات مضروبة، ولو ظهر أصحابها فى منتصف القرن لكانت أسمى أمانيهم هى التلاوة فى مقابر الإمام الشافعى، لأن قراء قرافة الإمام الشافعى فى تلك الفترة كانوا بالتأكيد أرفع مستوى من قراء التليفزيون هذه الأيام، تبقى الإذاعة، ويبقى لإذاعة الشرق الأوسط فضل علينا وعلى المستمعين بشكل عام، ولأنها احتفظت لنفسها بصوت عبقرى الحنجرة والقلب الشيخ محمد رفعت، ولكن الإذاعة بوجه عام فرطت فى حقها وفى حقنا أيضا، عندما أهدرت تراثها

العظيم من تسجيلات أصحاب الأصوات النادرة.

ونعود مرة أخرى إلى الشيخ شعيشع الذى كان طالبا بمدرسة المنصورة الثانوية، شاب حكم عليه جميع الأساتذة بأنه لا يصلح لشىء، لأنه أبدا ساهم على الدوام، وكان الغريب فى أمر الفتى أنه كان على الدوام يحرك شفتيه بكلام خافت.. وكان الذين يجاورونه فى الفصل يعلمون أنه يرتل القرآن، ورسب الطالب عاما وأعواما كثيرة، واستدعى الناظر أخاه الكبير ليقول له: إن أخاك لا يصلح هنا.

كان هذا آخر عهد «أبو العينين شعيشع» بالمدرسة، وخرج الشيخ أبو العينين إلى الشارع، يسهر كثيرا فى الموالد ويحوم حول المنشدين فى الأسواق، ويطرب كلما سمع أن أحدا من كبار القراء سيسهر الليل فى المنصورة، وكان أخوه «الشيخ أحمد شعيشع» من مشاهير القراء فى المنصورة، فكانت فرصة طيبة للسيد أبو العينين أن يذهب معه كل مساء إلى كل مأتم أو ليلة مولد يحتفل بها.

وسمع الشيخ أبو العينين فى الليالى الكثيرة التى سهرها الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى، والشيخ محمد الصيفى، والشيخ محمد رفعت، وذات ليلة كان الشيخ أحمد متعبا، فحل محله الشيخ أبو العينين، وسمعه الشيخ رفعت فأعجب به، وتنبأ له بمستقبل باهر، ثم لم يلبث الشيخ أبو العينين أن نزح إلى القاهرة، وكان ذلك فى عام ١٩٤٢، فقد سمعه رجل من رجال القصر الملكى، فاستدعاه ليقرأ فى الإذاعة، ومنذ ذلك الحين والشيخ أبو العينين لا يفارق الشيخ رفعت، الذى اتخذ منه تلميذا له، واتخذ الشيخ أبو العينين من القاهرة مقرا له، ولم يلبث أن نزح إليها الشيخ أحمد شقيقه الأكبر بعد أن اعتزل القراءة فى المنصورة، وعاش ليرعى شئون أخيه.

وفى عام ١٩٤٨ بلغ أجر الشيخ أبو العينين مائة جنيه فى الليلة الواحدة، وأصبح يتقاضى خمسة وعشرين جنيها عن كل إذاعة له من محطة القاهرة، وهو مبلغ لم يصل إليه حتى الآن سوى أربعة من كبار القراء، مصطفى إسماعيل، وعبد الفتاح الشعشاعى، ومحمد الصيفى، والشيخ أبو العينين.

وعندما توفيت ملكة العراق سافر الشيخ إلى بغداد ليحيى مأتمها بدعوة رسمية من الحكومة العراقية، وتقاضى فى تلك الرحلة ثلاثة آلاف جنيه، وفى عام ١٩٥٢ استدعته الإذاعة المصرية ليقوم بتكملة أشرطة المرحوم الشيخ محمد رفعت.

والذين يستمعون الأشرطة الآن لا يستطيعون ببساطة تمييز صوت الشيخ شعيشع أثناء التلاوة، السبب فى ذلك أن الشيخ أبوالعينين كان يقرأ بطريقة الشيخ رفعت قبل وفاته، وكان الشيخ رفعت يرضى عنها كثيرا، إن الشيخ أبو العينين فى الخامسة والسبعين من عمره، وكان يرتدى الكاكولا والطربوش، مخالفا بذلك الزى التقليدى للمشايخ الذين ظهروا فى دنيا التلاوة، ولكنه اضطر إلى خلع الطربوش عندما زار تركيا، وكان مندوب السفارة المصرية فى انتظاره بالمطار، وحذره المندوب من ارتداء الطربوش فى اسطنبول لأن عقوبة ارتدائه السجن، فخلع الشيخ الطربوش، وتعمم بمنديل، ثم تعمم بعد ذلك بشال أبيض.

ولكن سوء الحظ تدخل فى حياة الشيخ وهو فى قمة عنفوانه وشبابه، فقد أصابه مرض غريب أثر على أحباله الصوتية، ثم مات أخوه الشيخ أحمد الذى كان بمثابة الوالد، ولكن الشيخ استطاع بالصبر أن يهزم مرضه، وعاد إلى القراءة من جديد، ويسافر كل عام إلى الخارج لإحياء ليالى شهر رمضان المبارك، وأشرطته تسجل أرقاما عالية فى التوزيع، كما أنه يلعب الآن دور الكشاف فى لعبة

كـرة القدم، ولـه جـولات واسعة فى ريف مصر لإكتشـاف المواهب الجديدة، وله رأى فى عدم وجود أصوات جديدة واعدة.

والسبب فى رأى الشيخ أن الكتـاتيـب اختفت فى الـريف، كما أن الأكل البلاستيك والماء الملوث، واستخدام الأسمدة الكيمياوية أثرت عضويا على صحة الإنسان، وهـو رأى صحيح بالتأكيد، لأن الناس زمان كـانت تأكل الطعام الطبيعى بلا كيماويـات ولا تلوث.. ولهذا السبب كـان فى مصر أكثـر من عشريـن قـارئا للقـرآن من فصيلـة العباقرة، اجتمعوا جميعا فى وقت واحد فى بداية القرن العشرين.

والآن.. ربما لا يـوجـد من صنـف العبـاقــرة إلا شخص أو شخصان، والباقون من صنف البلاستيك كـالطعام الذى يأكلونه، ولا يـزال الشيخ شعيشع يعيش بيننـا، نفحـة من نفحـات الماضى الجميل الذى عاشه المصريون وسعدوا به.



صوت الإنسان مثل لون عينيه ليس له دخل فيه وليس له دلالة.

العيون الخضر مثلا لا تدل على أن صاحبها مغفل أو ذكى أو حريص أو نواسى الطبع يرتكب الإثم ويفخر به ولا يبالى!

• والصوت القبيح قد يكون لصاحب نفس طيبة، والصوت الجميل قد يكون لشيطان رجيم!

والشيخ عبد الباسط عبد الصمد له صوت جميل ونفسية طيبة أيضا، وعندما يكون لك نفسية طيبة وصوت قبيح، فلن تكسب شيئا. فإذا كان لك صوت جميل ونفسية من أى لون فستصبح ثرياً وشهيراً قبل أن تبلغ الثلاثين، فإذا كان صوتك من معدن الشيخ عبدالباسط، فأنت تستطيع أن تدخل التاريخ كصاحب صوت وطريقة من أجمل ما عرفته دولة التلاوة فى تاريخها الطويل .

بدأ الشيخ عبدالباسط يعشق سماع القرآن الكريم من المشايخ الكبار فى مساجد أرمنت وفى مقابرها، ولكنه كان يفضل سماعه منبعثاً من ذلك الصندوق السحرى الذى اسمه الراديو.

وفى عام ١٩٣٩ كان هذا الصندوق أندر من الذهب، وكان فى أرمنت كلها راديو واحد يبعد عن بيت الشيخ عدة أميال، وكان الشيخ يذهب حيث يوجد الصندوق مرتين كل أسبوع، مرة فى يوم الثلاثاء ومرة أخرى فى يوم الجمعة، وهذه اللحظات التى كان يقضيها بجوار الصندوق هى أسعد لحظات عمره.

كان يجلس مستندا على جدار الدكان، والصندوق السحرى ينبعث من داخله صوت كأنه السحر، صوت فيه شجن وفيه قوة وفيه خشوع وفيه رهبة، وفيه دعوة إلى ملكوت الله! كان هو صوت المرحوم الشيخ محمد رفعت .

وفى عام ١٩٤٠ بدأ الشيخ عبدالباسط يحترف قراءة القرآن، وكانت أولى لياليه فى قريته، وفى مأتم أحد أقاربه، وقرأ عشر ساعات كاملة، ثم نقدوه أجره فى الصباح، وكان الأجر عشرة قروش فضة، كبيرة مثل العيش المرحرح وعليها نقوش بارزة تقول أنها ضربت فى عهد السلطان !

واشترى الشيخ حلاوة طحينية وملبن وكراملة وفول سودانى ولب، ووضع الباقى فى حصالة. فقد كان حلمه الكبير أن يقطع تذكرة ويركب القطار إلى بلد بعيد! وفى سن الخامسة عشرة تحقق حلمه الكبير، ركب القطار القشاش من أرمنت إلى قرية مجاورة وسهر هناك حتى الصباح، وعاد ومعه خمسة وعشرون قرشا كاملة! وكانت هذه الليلة هى تاريخ ميلاده، ففى تلك الليلة ولد قارئ جديد، صوته قوى وجميل، وهو شاب وصحته جيدة، وله أسلوب فى القراءة لايقلد فيه أحداً، وإنما هو لون جديد!

ومن تلك الليلة بدأت شهرة الشيخ عبدالباسط، وانفتحت أمامه قصور العمد والأعيان وباشوات الصعيد، وأصبح جواب أفاق، يخرج من بيته أول الشهر فلا يعود إليه إلا فى نهايته .

وتزوج وأنجب، وعبر البحر إلى بيت الله الحرام، وقرأ فى الكعبة الشريفة، وعلى مسمع من نصف مليون من البشر، بينهم الهندى والعربى والتركى وابن القوقاز والذى من نسل المغول! ثم عاد ليعيش فى قريته مرة أخرى .

وفى عام ١٩٥٠ جاء الشيخ إلى القاهرة ليزور السيدة زينب، وفى ليالى المولد كان يندس فى الزحام كل ليلة مجهولاً مغموراً، يتفرج على الأضواء والألعاب وعلى الأذكار، ويخلع نعليه ويزحف إلى داخل المسجد، ليستمع إلى القراء الكبار. وفى الليلة الختامية كان هناك أكثر من قارئ عملاق يخوضون فيما بينهم معركة حامية لإحياء مولد السيدة، ثم أدرك التعب هؤلاء المشايخ الكبار فكفوا عن التلاوة، ثم دعا بعض الناس الشيخ عبدالباسط إلى القراءة، فهو على الأقل يستطيع أن يقتل الوقت حتى يستريح المشايخ الكبار، ويستأنفوا التلاوة.

وتقدم الشيخ عبدالباسط على حذر، وقرأ وهو يتوجس شراً، والناس أيضا يتوقعون شراً، وعندما انتهى من التلاوة كان الفجر على الأبواب، وكان المسجد قد ضاق بالناس، وخرج من المسجد فى الصباح وعلى يديه ألف قبلة، ومعه أكثر من عقد لإحياء الليالى هنا وهناك، ولأول مرة أيضا وصلت إلى يديه عشرة جنيهات كاملة.. ثم عشرون.. ثم ثلاثون.. ثم خمسون، وعند ذلك قرر اعتزال الصعيد والبقاء إلى الأبد فى القاهرة، ونام الشيخ عبدالباسط فى لوكاندة الشرق فى السيدة زينب، ولم يمض عامان حتى وصل صوته إلى الاذاعة. ووصل أجره ١٢جنيها كل نصف ساعة، ووصل أجره فى الليلة إلى مائة جنيه، وغادر الشيخ عبدالباسط القاهرة إلى أرمنت ثم عاد ومعه كل العائلة، شقيقان وزوجته ونصف دستة من الأطفال .

وذاع صيت الشيخ فى كل مكان، وقفز أجره إلى مائتى جنيه ثم إلى ثلاثمائة جنيه .

والشيخ عبدالباسط طاف حول الكرة الأرضية وذهب إلى الشرق وإلى الغرب، ولم يثر انتباهه شىء فى تلك البلاد إلاالمعجبون بفنه . فى أندونيسيا مثلا كان المعجبون يقفون بالساعات ليستمعوا إليه، وفى مراكش قرأ للملك وحده، وفى باريس لم يجد مستمعين ولم يجد معجبين فشعر بالاختناق وهجرها بعد ثلاثة أيام، هجرها إلى كازابلانكا، وهو لا يذكر من باريس إلا شارع نهر الصين«السين»، وكان يحلو له أن يتنزه فيه كل مساء وهو بالجبة والقفطان .

والشيخ عبدالباسط لم يؤمن بالسينما ولا بالمسرح ويحب القراءة، وأحسن كاتب قصة فى نظره هو عباس العقاد! طه حسين كويس أيضا، وهو مدمن قراءة صحف، وأحسن كتاب الصحف هو محمد حسنين هيكل ثم كامل الشناوى، ولا يغيظه فى الجرائد إلا الكذب، إنها تكذب كثيراً، روت عنه أخباراً ملفقة وقصصاً من نسيج الخيال، وأطلقت عليه اسم «براندو» وهو يشعر بالأسف لاطلاق هذا الاسم عليه، لأن براندو ممثل ولأنه أمريكانى، ولكن الشيخ يتسامح مع الصحفى حتى لو أساء إليه !

والقارىء فنان، وبعضهم يستطيع أن يصبح مطرباً ويبسط الناس، ولكن القارىء يكسب أضعاف المطرب، إنه لا يحتاج إلى مؤلف ولا إلى تخت ولا إلى كورس ولا إلى ملحن. لأن الملحن هو علم أحكام القراءات .

والشيخ عبدالباسط لم يقرأ شعراً ولم يهتم بالشعراء، وسمع أن هناك رجلاً اسمه شوقى، ولم يعلم إن كان حيا يرزق أو طواه القبر، ويعرف أن توفيق الحكيم هو رئيس الشعراء، وكان أحيانا

يسع الأغانى، وأحسن مطرب لديه كان محمد عبدالوهاب، وأحسن أغانيه هو فى الليل لماخلى، وفايت على بيت الحبايب، وعبدالحليم حافظ مش بطال، وأم كلثوم معجزة.. فلتة لن يجود بمثلها الزمان! إنها فى الطرب مثل الشيخ محمد رفعت فى التلاوة، وكلاهما عبقرى وكلاهما فيه سحر من عند الله .

ولكن أشرطة رفعت التى تذيعها الاذاعة الآن تسىء إلى الشيخ، إنها صدى هزيل لصوته الحقيقى، الذى هو بحق أعجوبة الزمان !

وكان يؤمن جدا بالحديث الشريف: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

وقد عمل لدنياه، أحب الأسفار والرحلات، وأنفق عن سعة، وسكن فى شقة فاخرة، وكان فى مكتبه تليفون أخضر، وكانت لديه عربة شيفروليه آخر موديل، وكما عمل لدنياه عمل لآخرته، ومن أجل آخرته دخل مؤسسا فى بعض الشركات، وأقام فى أرمنت عمارة ضخمة، ولكنه لم يملك أرضا ولانقوداً، ولكنه كان يملك الستر وكان دائما يسأل الله أن يديم الستر عليه !

وكان يميل فى حياته للعزلة، كما كان يكره الاختلاط، وكانت وسيلته الوحيدة للاتصال بالناس هى الخطابات، وكان يضع فى درج مكتبه ألف صورة له يضعها فى خطابات فى لون البنفسج ويرسل بها إلى المعجبين فى كل مكان .

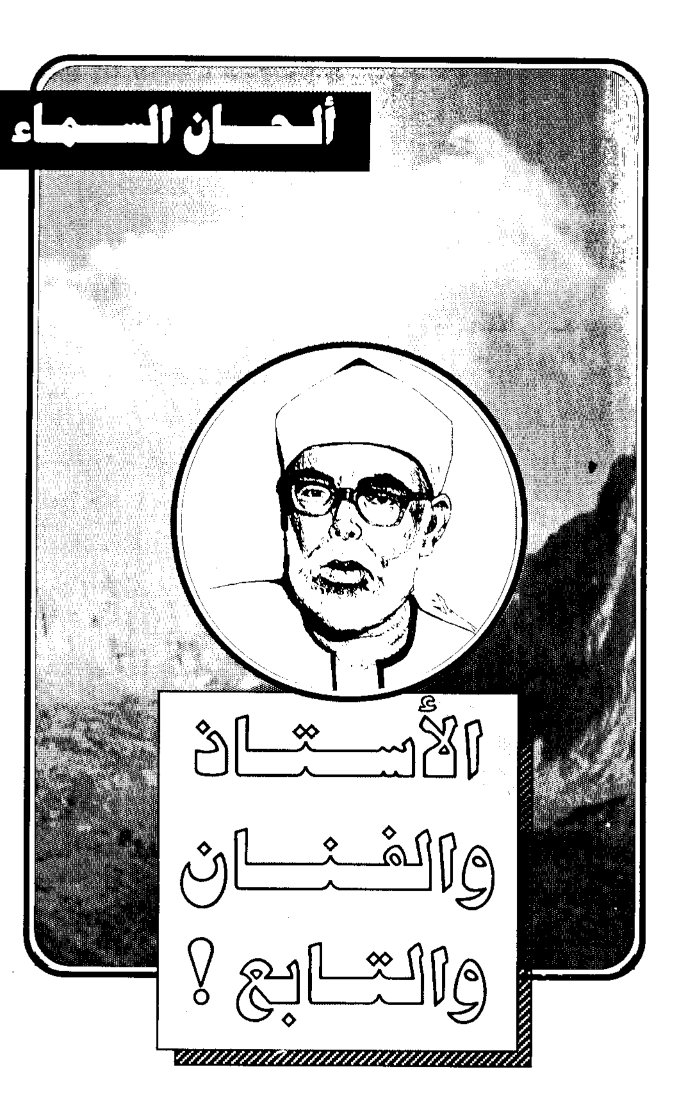
كانت هوايته الوحيدة هى قضاء عدة أسابيع كل شتاء فى أسوان والاعتكاف فى منزله طوال العام والعبث بحبات مسبحة نادرة خضراء فى لون البرسيم.. ولون السيارة والجبة.. والتليفون

ولكن ولأن الأقدار بيد السماء ـ على رأى عمنا زكريا الحجاوى يرحمه الله ـ فقد أصيب الشيخ عبد الباسط وهو فى ريعان شبابه وقمة مجده بمرض السكر اللعين. نال المرض من صحته ومن

صوته، فلم يعد هو الشيخ عبدالباسط الذى نعرفه، انهكه المرض وظهرت آثاره على صوته الجميل، وداخ الشيخ بحثا عن دواء يصلح ما أفسده الدهر، ولكن سعيه لم يشفع له، فما هو مكتوب على الجبين لابد أن تراه العين، وحدث أن جاء أحد الأمراء إلى القاهرة واتصل بالعبد لله طالبا منى القيام بواجب نحو الشيخ عبدالباسط، فقد جاء إلى القاهرة ومعه دواء من حبة البركة يحقق الشفاء للشيخ الذى بهر الجميع وأحبه الجميع ، وسألت عن الشيخ، واكتشفت انه يقضى فترة فى المدينة المنورة بجوار قبر الرسول، وحدد لى موعد حضوره، واتصلت به فى المساء وأجابنى صوت مشروخ من شدة البكاء، وعندما سألته عن الشيخ أجابنى فى حزن شديد :

لقد مات منذ ساعات .

رحم الله الشيخ عبدالباسط عبدالصمد، الذى أحبه الملايين وعشقوه.. من أمريكا حتى الصين !



خارج مصر .. وفى كل أنحاء العالم الإسلامى، كانوا يطلقون عليه شيخ القراء المصريين، وهى تسمية خطأ، والصحيح أنه شيخ المقارىء، والمقارىء هى إدارة رسمية، وكان المرحوم الحصرى هو شيخها بلا منازع، أما شيخ القراء فى عصر الشيخ الحصرى فكان الشيخ مصطفى إسماعيل صاحب الحنجرة الذهبية، وبوفاته احتل الشيخ عبدالباسط عبدالصمد مكانه بلا منافس، فهو صاحب الحنجرة الفضية، وأحد أعلام القراءة فى العصر الحديث !

والشيخ الحصرى رحمة الله عليه كان صاحب مدرسة مميزة فى الأداء، ولكنه لم يكن من الطبقة الأولى بين القراء. وكان أقرب إلى الشيخ محمد الصيفى، وكلاهما عالم فى القراءات وأستاذ فى التجويد، وكلاهما حجة فى القراءات الصحيحة.. ولا يزيد! والفرق بين مصطفى إسماعيل ومحمود الحصرى هو ذاته الفرق بين الأديب نجيب محفوظ وأستاذ الأدب فى الجامعة وهو نفسه الفرق بين المدرب الجوهرى ومحمود الخطيب.. فالأول مدرس والثانى فنان، ومن السهل إنتاج ألف أستاذ، ولكن من العسير خلق فنان واحد، لأن الفنان من صنع ربى، وليس من صنع المدرس والجامعات!

فى استطاعة أى إنسان أن ينشىء جامعة لخريج ألف متعلم، ولكن ليس فى استطاعة أى مخلوق أن ينشىء موهبة حتى ولو كانت ضئيلة الحجم أو قصيرة القامة، لأن الموهبة نبتة غريبة فى حقل البشرية، وهى هبة إلهية، ثم تجربة وتحصيل بعد ذلك. كما أنها لا تتكرر، فهى طلقة واحدة سواء استقرت فى الهدف أو طاشت فى الفضاء! ولقد كان الحصرى عالما فذا ومتعلما عظيما، وكان دارساً ومدرساً، وترك بموته فراغاً كبيراً لأن أغلب القراء الذين على قيد الحياة الآن لم يحصلوا تعليمه، ولم يبلغوا علمه، وبعضهم موهوب، والبعض الآخر لا فن ولا معرفة ولا رغبة فى شىء من هذا.. ولا أمل !

وما أكثر القراء العظام الذين ظهروا فى مصر منذ بداية هذا القرن، وكان من بين هؤلاء أستاذ جامعى هو الدكتور أحمد هيبة، وكان يتمتع بصوت قوى وقرار سليم، ويعتبر واحدا من اثنين فى مصر يجيدان تقليد صوت محمد رفعت، وكان الآخر هو الشيخ أبوالعينين شعيشع.

حرص الدكتور هيبة على أداء صلاة الجمعة فى مسجد فضل باشا بالجماميز، وهو المسجد الذى ظل الشيخ رفعت يقرأ فيه حتى مات، وقد تنازل الدكتور هيبة عن أجره من اذاعة القاهرة، ولكنه كان يقبل أجره من الاذاعات الخارجية، ورفض فى الوقت نفسه كل العروض التى عرضت عليه لاحتراف التلاوة، وآثر أن يكون هاويا فى دولة التلاوة ويمارس وظيفته كأستاذ للحشرات فى كلية الزراعة، وظل رافضاً إلى آخر يوم فى حياته لجميع العروض التى عرضت عليه القراءة فى المآتم والحفلات العامة، ولذلك لم يشتهر الدكتور أحمد هيبة جماهيريا بما فيه الكفاية، وظل حريصاً على أن يتمتع بكل الفضائل التى يجب أن يتحلى بها قارىء القرآن، وعندما مات الدكتور أحمد هيبة ترك وراءه ثروة من الاسطوانات

القديمة لعباقرة دولة التلاوة وأساتذة فن الانشاد الدينى .

وكان من بين هؤلاء العظام الذين ظهروا فى دولة التلاوة الشيخ محمود عبدالحكم، وكانت لأدائه نكهة خاصة، وبالرغم من أدائه الفذ وصوته المحبب إلى النفوس وانتشاره الواسع فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، فقد ظل يعيش عيشة متواضعة، لأنه لم يكن يحدد لنفسه أجراً، وكان يفضل مشاركة مصطفى إسماعيل فى المآتم والحفلات العامة، وكان يقبل أى أجر يقدمه إليه ويدسه فى جيبه دون أن ينظر إليه ولم يحدث فى حياته كلها أن اختلف مع أحد من أبناء مهنته .

وكان الشيخ محمود على البنا من اللامعين فى دولة التلاوة وكانت له طريقة خاصة ومتميزة، ومن أغرب الأشياء أن العبد لله وقع بصره أول مرة على الشيخ محمود على البنا كان فى حقبة الأربعينيات، وفى مبنى جمعية الشبان المسلمين، وكان الشيخ محمود على البنا أحد أفراد فريق المصارعة بالجمعية، وعندما احترف التلاوة استطاع أن يشق طريقه بسهولة وبسرعة فائقة إلى الصفوف الأولى، فصار فى وقت قصير ندا للشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبدالباسط عبدالصمد.

والشيخ محمود على البنا يمتاز بأنه صاحب رؤية سياسية وصاحب موقف أيضا، وكان ناصريا ومعجبا على نحو ما بانحياز حكومة عبدالناصر إلى صفوف الفقراء.. وظل حريصا على قراءة القرآن فى بيت عبدالناصر فى مناسبة الاحتفال بذكراه كل عام، وكما كان جميل الصوت، كان أيضا جميل الصورة، وكان خير سفير للإسلام بكل مكان يحل فيه.

حدث أن حاصره مئات الألوف من المسلمين فى أندونيسيا ومنعوه من الانصراف ولم يتركوه إلا بعد أن ظل يقرأ لهم لمدة ست

ساعات متصلة، وقد اقترح بعد نكسة ١٩٦٧ أن يسافر ضمن وفد من كبار القراء إلى جميع الدول الإسلامية فى آسيا وافريقيا لجمع التبرعات لصالح إزالة آثار العدوان، ولكن الدولة رفضت الاقتراح، ومات الشيخ محمود على البنا بعد مرض خاطف لم يمهله طويلاً. وخسرت دولة التلاوة صوتاً من أعذب وأجمل الأصوات التى عرفتها فى تاريخها الطويل.

ثم ظهر الشيخ هريدى الشوربجى وهو من الأصوات الذهبية، ولكن أحدا لم يهتم بتسجيل صوت الشيخ النادر، ولذلك ضاع صوته بعد موته مع أنه عاصر الاسطوانات وشهدت فترة من حياته عصر أشرطة التسجيل، كما كان هناك الشيخ محمد مجد، والشيخ شفيق أبوشهبة قارىء جمهورية زفتى بالاضافة إلى الشيخ محمد سعودى قارىء طنطا والشيخ شتات قارىء الجيزة.

ولكن أغرب ظاهرة فى دولة التلاوة هى ظاهرة الشيخ مهدى السودانى، وهو قارىء مصرى سودانى، وكان نموذجاً رائعا لوحدة وادى النيل، وقد عاش الشيخ مهدى فى حى عابدين بالقاهرة فى صدر شبابه، وعندما استمع إلى الشيخ على محمود أول مرة قرر أن يتبعه كظله، وصار الشيخ مهدى جزءا من حياة الشيخ على محمود، يتواجد فى المكان الذى يوجد فيه الشيخ على ويكون أول الحضور فى حفلات الشيخ ، ويكون آخر المنصرفين من حضرة الشيخ على، ولهذا فقد الشيخ مهدى شخصيته وذاب فى شخصية الشيخ على فأصبح يتكلم مثله ويقرأ على طريقته وينشد التواشيح بأسلوبه، ويكح كما يكح الشيخ على، وكأنه كوكب صغير يدور حول الشمس وإلى الأبد.

وقد نجح الشيخ مهدى فى أن يصبح عضواً فى بطاقة الشيخ على محمود، وقبل أن يموت الشيخ على بفترة قليلة، وعندما استقلت السودان عاد الشيخ مهدى إلى أرض الجذور، فحمل الجنسية

السودانية وترك مسقط رأسه ومرتع صباه فى عابدين وعاد إلى الخرطوم، ولكن أين صخب الحياة وبهجتها فى عابدين من هدوء الخرطوم؟

أصيب الشيخ مهدى بصدمة كبيرة من شوارع الخرطوم الهادئة الخالية من المارة، ولعدم وجود المقاهى الشعبية الساهرة حتى الصباح كما كان الحال فى سوق الاثنين، وفى حى البلاقسة، وراح يجتر أيامه مع شلة من الأصدقاء من أبناء الجالية المصرية، وظل الشيخ مهدى حريصاً على قراءة القرآن بالسفارة المصرية فى عيد ثورة يوليو، كما كان حريصاً على زيارة القاهرة كل صيف لرؤية الأهل والأقارب الذين آثروا البقاء فى مصر والاقامة فى عابدين.

● والغريب أنه مات بعيداً عن وادى النيل الذى أحبه، ووافاه الأجل المحتوم فى رحلة حج إلى بيت الله الحرام، ودفن فى البقيع مع الصحابة والتابعين! ويخشى العبد لله أن يكون قد نسى أحداً من نجوم دولة التلاوة، وإن كان من الضرورى أن أتعرض لذكر الشيخ على، وهو أحد القراء الذين ظهروا فى بداية القرن، وكان من السهل عليه أن يحتل مكانا لائقاً به تحت الشمس، ولكن حظه السيىء أصابه بمرض فى صوته أجبره على التوقف.

ولما كان الشيخ على يتمتع بتكوين جسمانى يشبه تكوين الملاكم، قامة فارعة وصدر عريض وعضلات مفتولة، فقد اكتفى بحضور حفلات المآتم والمناسبات التى يحييها كبار القراء، وكان محله المختار على مقعد بجوار دكة القارىء، وكان يقوم خلال السهرة بدور المطيباتى للشيخ الصييت، ويقضى السهرة يكرر بعض العبارات استحسانا لصوت القارىء وتشجيعاً له، وهى عبارات محفوظة وقديمة ومكررة مثل.. يامشبع، صلى على البنى كده واشرع، صلى على حضرة النبى ﷺ، وهى مهمة لايزال يمارسها حتى الآن مئات من غير الموهوبين، ويحصلون آخر



السهرة على مايجود به القراء، ولكن عمنا الشيخ على لم يكن من النوع الذى يرضى بالجودة التى هى من الموجود، لكنه كان يصر على مشاركة القارىء فى الأجر الذى حصل عليه، ولأنه كان شديد القوة وشديد البأس فقد خضع له أغلب القراء، ولكن سوء حظ الشيخ على الذى لازمه منذ البداية أوقعه فى شر أعماله، فقد تحرش بأكبر رأس فى دولة القراء وهو الشيخ محمد رفعت، وكان سوء حظه مضاعفاً لأن السرادق الذى شهد الحادث كان مقاماً فى حى المدبح.

وفى تلك الليلة رفع الشيخ على يده وهوى بها على وجه الشيخ رفعت، ولكن كفه لم تصل إلى وجه الشيخ ، لأن الشيخ على نفسه كان قد سقط على الأرض، وأتحفه عشاق الشيخ رفعت بعلقة لم يأكل مثلها حمار فى مطلع، وكانت هذه هى آخر مرة يشاهد فيها الشيخ على فى الحياة !

وإذا كنا قد تعرضنا لحياة العظماء من أبناء دولة القراء، فلابد قبل أن نسدل الستار على الماضى المجيد أن نتعرض لتاريخ الرجل الذى كان له الفضل الأول فى إحياء دولة التلاوة، وهو الذى فتح الطريق ومهده وفرشه بالورود والرياحين.. عمنا ومولانا فضيلة الشيخ ندا سلطان دولة التلاوة فى العصر الحديث !

قليلون جدا يعرفون أن محمد عبد الوهاب ـ فى صباه ـ كان يعرض الحانه على اثنين من كبار القراء أحدهما الشيخ على محمود ، والثانى رجل يدعى الشيخ حسن المناخلى .. وكان عبدالوهب يلجأ إليهما كلما واجهته مشكلة عويصة عند أداء لحن من الألحان.. وكان الشيخ المناخلى يتمتع بصوت جميل وأداء قلما تجد له نظيرا بين القراء ، واستطاع الشيخ المناخلى أن ينتزع الشهرة بطريقة فذة ، فقد كان يشترك مع الشيخ منصور بدّار فى إحياء ليلة بحى السلخانة ، وكان الشيخ بدّار معروفا بمهارته فى «سرقة» الجمهور ، فقد كان لا يدع الفرصة لزميله ليقرأ الوقت المخصص له .. فقد كانت طريقته فى الأداء ـ مع ما له من صوت جميل ـ تجعل الجماهير تصر على سماعه حتى النهاية ، فضلا عن أنه كان فى قمة الشهرة .

وكان الشيخ المناخلى فى بدء حياته .. ولم يكن قد ذاع صيته بعد ، وعندما انتهى الشيخ بدار .. عادت الجماهير تلح عليه أن يواصل قراءته ، فاستجاب لها ، وعندما انتهى ارتفعت الأصوات من كل جانب تطلب إليه مواصلة التلاوة حتى الصباح ، وعندما هم الشيخ بدار

تقدم منـه الشيخ المناخلى ، ودفعـه بيده فألقى بـه من فوق «الـدكة» وأخـذ مكـانـه ، وهـاجت الجماهير ، وهمت بضرب الشيخ المنـاخلى ، ولكنها سكتت وهـدأت بعد أن استمعـوا اليه ، وعنـدما انتهى، أصرت الجماهير على أن يـواصل التـلاوة ، وانسحب الشيخ بـدار ليلتهـا من الحفل .. بعـد أن تمكن الشيخ المنـاخلى من «سرقـة» جمهـوره بنفس الطريقة التى كان يتبعها الشيخ بدار .

وعاش الشيخ المناخلى يقرأ عندمـا يريد ، وليس كلما طلب إليه أحد من الناس ، ولذلك لم يربح كثيرا .. وكـان يكسب ما يكفيه ، ومات قبل إنشاء محطة الإذاعـة .. وترك عدة اسطوانات قليلـة ضاعت بعد ذلك ، ولم يعـد أحد يعـرف أين ضـاعت ؟ وقبل أن يمـوت لحن عدة قصـائد «يـاقوتى الشفتين فـالج السنتين» ، وتوشيح «كـالبدر ليلـة التمام» ، وتعتبر هاتان القطعتـان من أروع ما لحن فى الموسيقى الشرقية ، وظل عدة سنـوات يرفض القـراءة فى الحفلات ، وكلما سُئل عن سر عـزوفه عن التلاوة قـال : إن الناس تسمعنى وتسمع الشيخ البربـرى ، وكان هـو - يـرحمه الله - لا يـرضى عن طـريقة الشيخ البربـرى وغيره من مشاهير عصره .

●●●

لم ينل قـارىء فى عصره ، وفى إقليمه من الشهرة مثلما نـال الشيخ صـديق المنشاوى ، والـد الشيخ محمـد صـديق المنشاوى «قـارىء الإذاعة المعروف» ، رفض أكثر من مرة أن يـذيع رغم العروض المغرية التى عرضت عليه ، وأخيرا منذ حوالى ٤٠ عاما سافرت بعثة من رجال الإذاعة إلى قنـا لتسجيل شريط للشيخ المنشاوى .. وقبل الـرجل هذه المرة ، وتمت إذاعة الشريط اليتيم له فى محطة الإذاعة .

نشـأ الشيخ صديق المنشـاوى وعاش فى مديريـة قنا ، وذاع صيته فيهـا وفى الأقـاليم المجاورة ، واتصل فى شبـابـه بـالشيخ أبوالـوفـا الشرقاوى فطـرب لصوته ، وجعله من خـاصته ، ورفض الاشتراك فى

احياء الليالى خـارج حدود مديريتى قنـا وجرجا ، وعاش حيـاته كلها لايساوم على الأجر ولا يتفق عليه !

حـدث مرة قبل الحرب الأخيرة بأعـوام — وكان الشيخ المنشـاوى يتقاضى جنيهـا واحدا عن كل ليله — حدث أن كان يقـرأ فى مأتم أحد أعيـان قنـا ، وفى آخر الليـل دس شقيق الميت «بشىء» فى جيب الشيخ المنشـــاوى ، وانصرف الشيخ دون أن يلقى نظـرة على هــذا الشىء واكتشـف الشيخ وهو فى المنـزل أن الشىء الذى دسه الـرجل فى جيبه مليم واحـد لا غير ! وقبل أن يفكـر فى هـذا الذى حـدث ، كـان الـرجل صاحب الليلـة يطرق بـاب الشيخ ليعتذر له عـن الخطأ الشنيع الذى وقع فيـه ، فقد كـان فى جيب الرجل جنيـه ذهبى ومليم ، وكان ينـوى إعطاء الجنيـة للشيخ ، فأخطا وأعطـاه المليم ، ولكن الشيخ المنشاوى رفض أن يتقاضى شيئا فوق المليم قائلا :

«قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» .

وكـان للشيخ المنشـاوى ولـــدان أكبرهما الشيخ محمـد صـديق المنشاوى القـارىء المعروف ، والثانى كـان ذا صوت جميل ومـوهبة حسنة ،وكـان يقرأ القرآن والتـواشيح ،وفى ليلة من ليـالى عام ١٩٣٩ وقع عقدا مع إذاعة الشرق الأدنى ، واستعـد للسفر إلى القدس ، ولكنه استيقظ عند الفجر فقد استبد بـه القلق ، وضايقه الحر ، ووقف برهة ينظـر من النـافذة فى الـدور الخامس ، ولم تمض دقـائق حتى شعـر بإغماء سقط على أثـره من النافـذة إلى الشارع فمات ، وفى مأتمه قـرأ الشيخ محمـد رفعت ، والشيـخ على محمـود ، وغيرهما من مشـاهير القـراء ،فقد كـانوا جميعـا أصدقـاء لوالـده الشيخ المنشاوى ، وكـان الشيخ رفعت يعتبره أستـاذا فى التـلاوة ، وصـاحب مدرسـة فنيـة فى التجويد .

وظل الرجل حتى مات وفيا لعهده فلا يقـرأ خارج حدود مديريته ،

ولا يساوم على الأجر ، ولا يتفق عليه ،مرة واحدة فقط هجر إقليمه وجاء إلى القاهرة ليقرأ القرآن ثلاثة أيام متتالية ،حدث ذلك فى عام ١٩٤٩ . وفى مأتم الشيخ محمد رفعت ،ولكن الظروف أجبرته مرة أخرى على زيارة القاهرة عندما أقنعه المذيع اللامع فهمى عمر وبلدياته بالحضور إلى القاهرة لإجراء اختبار لصوته فى الميكروفون .

وحضر فعلا للقاهرة ،وقام الفنيون باختبار صوت الشيخ ،ولكن النتيجة لـلأسف الشديد كانت بالسلب ،وليست بالإيجاب ،لأن الأصوات لسوء الحظ كالوجوه ،وبعض الوجوه الجميله لا تصلح للتصوير ، وأيضا بعض الأصوات الجميلة لا تصلح للميكروفون، والعكس أيضا صحيح.

ومن سوء حظنا أن الشيخ صديق المنشاوى الكبير كان صوته من هذا النوع!

وفى عام ١٩٣٧ اكتشف مفتش بيطرى بتفتيش بهتيم صوتا جديدا يرتل القرآن فى نغم رتيب حبيب، يشبه إلى حد كبير صوت المرحوم محمد رفعت،وكان صاحب الصوت الجديد هو الشيخ كامل يوسف البهتيمى .

وفى عام ١٩٣٨ قدم الدكتور والأستاذ الجامعى أمين زاهر، الشيخ كامل إلى الأستاذ محمد فتحى الإذاعى المعروف.

وفى اليوم التالى كان الشيخ كامل يذيع من محطة القاهرة، وبأجر قدره ٥٠ قرشا عن كل إذاعة.. وعندما قامت الحرب قفز أجر الشيخ إلى خمسة جنيهات ثم إلى عشرة.. ثم إلى خمسة عشرة.

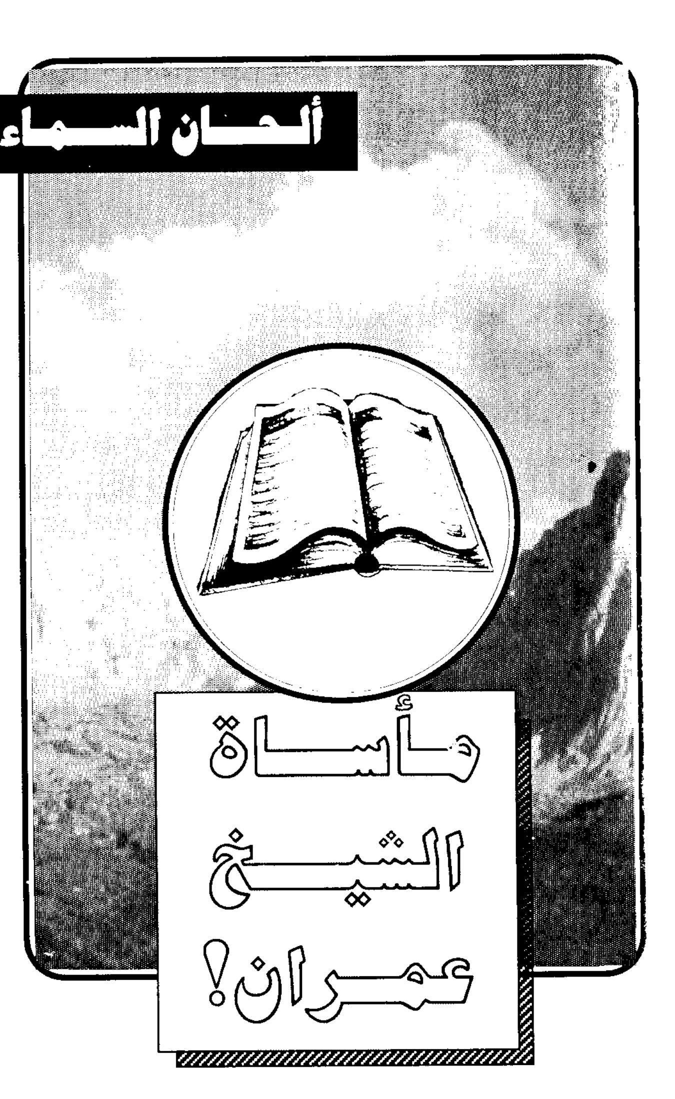
وفى عام ١٩٤٤ سافر الشيخ إلى فلسطين ليذيع من محطة الشرق الأدنى، وبأجر خمسمائة جنيه فى شهر رمضان.. وفى العام الذى يليه ـ ١٩٤٥ ـ سافر الشيخ كامل إلى السودان ليقرأ القرآن فى النادى المصرى بالخرطوم طوال شهر رمضان وبأجر خمسمائة جنيه أيضا،

وعندما جاء عام ١٩٤٧ كان الشيخ كامل يذيع من محطات لندن وسوريا ودلهى والشرق الأدنى، وبأجر قدره جنيه مصرى واحد لكن عن كل دقيقة.

ولقد نشأ الشيخ كامل وعاش طفولته الأولى فى بهتيم.. ثم نزح إلى القاهرة ليتعلم القرآن فى مدرسة عثمان باشا ماهر بالقلعة.. ثم دخل الأزهر ، وقضى فيه فترة قصيرة قبل أن يفصلوه ، وكان سبب الفصل هو كثرة تغيب الشيخ كامل عن حضور الدرس.. فقد كان الشيخ يظل طوال الليل يطوف حول السرادقات التى يقرأ فيها الشيخ محمدرفعت، والشيخ على محمود وغيرهما من العمالقة، وكان الشيخ كامل لا يعود إلى منزله إلا مع الفجر، وكان الشيخ رفعت هو أول العمالقة الذين تعرف بهم الشيخ كامل، وظل الشيخ رفعت يخصه بالعطف والحنان حتى مات.

لقد ظل الشيخ كامل يبكى كلما سمع صوت الشيخ رفعت، وكانت أحب الأصوات إليه هما صوتا الشيخ محمد سلامة، والشيخ مصطفى إسماعيل ، فالشيخ مصطفى صاحب أجمل صوت بين القراء، والحادث الوحيد الذى لا ينساه حدث له فى فلسطين فى عام ١٩٤٤، حيث حاصرته جماعة من الجنود الإنجليز السكارى وطلبوا منه أن يقرأ لهم ظنا منهم أنه يغنى .. واضطر الشيخ إلى أن يغنى لهم أكثر من ساعة، وهم يتمايلون من النشوة والسرور، قبل أن يتركوه.

والشيخ كامل توفى فجأة، قبل أن يصل إلى سن الستين، وهو متزوج، وله عدة أولاد، وكان من أمنياته أن يقرأ سورة الكهف يوم الجمعة فى القدس الشريف، وأن يحصل على جميع تسجيلات المرحوم الشيخ محمد رفعت.


ألحان السماء
مأساة
الشيخ
عمران!

قبل أن يموت الشيخ على محمـود بليلة واحـدة كان يقرأ وينشد التواشيح حتى الصبـاح، وكان يبدو عليه ليلتها أنه أقوى من أى وقت مضـى، وكذلك الشيخ ندا، فقـد ظل يقـرأ حتى مـــات.. رجل واحـد فقط اعتـزل التـلاوة فى قمـة مجده عـام ١٩٣٧، هـذا الـرجل هـو الشيخ منصور بدّار.

كان الشيخ بدار صديقا لسعد زغلول،ومعظم رجال الوفد المصرى عاش معهم تلك الأيـام المجيدة الخالـدة.. أيام ثـورة ١٩١٩، وكان فى وداع سعد عندما ذهب إلى المنفى، وكان فى استقباله عندما عاد.. ورأى الإنجليـز يقتلـون الناس فى الطـريق والـوطنيين العـزل من السـلاح يحاربون بأصابعهم، ويموتون وعلى أفـواههم ابتسامة الرضا، وأراد الشيخ بدار أن يشـارك قومه. ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئـا سوى أن يقـرأ.. وكان الأزهـر مهـد الثـورة، وفيه يلتقى كـل مساء أقطـاب الـوطنية وأشهـر الخطبـاء وعشرات الألـوف من الجماهير الغاضبـة الثائرة، وكـان الحفل يبدأ وينتهى بصـوت الشيخ بدار.. ولـذلك أطلق عليه لقب « قارىء الثورة » .

وقبل ثـورة سنة ١٩١٩ كان الشيـخ بدار يعيش فى استنبـول، فقد كـان الخليفـة العثمانى يحب اقتنـاء كل شىء نفيس.. فقـرر اقتنـاء الشيخ بـدار.. لكونـه صـاحب أجمل وأعـذب وأحلى صوت ظهـر بين أصحاب أصوات ـ مطربين وقراء ـ منذ بداية القرن الحالى حتى يومنا

هذا، ويكفى أن الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبدالباسط عبدالصمد يتبعان طريقته.. وربح الشيخ بدار كثيرا.. واقتنى لنفسه ضيعة كبيرة فى القليوبية، ثم فجأة اعتزل التلاوة ـ ولا أحد يدرى لماذا ـ وكان ذلك فى عام ١٩٣٧.. مع أنه قبل ذلك بعشر سنوات ظل أسبوعا كاملا يقرأ فى مأتم الزعيم سعد زغلول.. ولم يحضر بعد ذلك حفلات عامة إلا مرتين.. مرة عام ١٩٣٠ فى ذكرى وفاة سعد.. ومرة عام ١٩٣٦ فى مأتم الملك فؤاد.. وعاش الشيخ بدار حتى بلغ من العمر أرذله، ولزم ضيعته يتلو القرآن أحيانا لأصدقائه، ويسرد على مسامعهم تفاصيل الأحداث التى عاشها بين اسطنبول والقاهرة.

سألت مرة الشيخ السعدنى عن رأيه فى أصوات القراء، فقال:

رفعت مثل أبو ذر الغفارى، يمشى وحده ويموت وحده، ويبعث وحده يوم القيامة، وصوت الشيخ بدّار كالذهب المصهور، وصوت مصطفى إسماعيل كالذهب المسبوك، وكل قارىء، وله رائحة خاصة، وطعم مختلف، مثل حديقة الفاكهة، فيها كل شىء من البلح الزغلول، إلى العنب البناتى، والمهم التوفيق وخدمة القرآن!

●●●

عاش الشيخ يوسف المنيلاوى قبل الشيخ أحمد ندا، ومات بعده، وكان صديقا حميما للشيخ سلامة حجازى، وكامل الخلعى.. وكان يتحيز كثيرا للمرحوم داود حسنى، ويعتقد أنه أعظم ملحن ظهر فى مصر، ومن هنا قامت العداوة بينه وبين الشيخ على محمود، ومن هنا أيضا جاءت المنافسة بين الرجلين.

وكان حظ الشيخ المنيلاوى أضأل من حظ منافسه الشيخ على محمود، ومن هنا أيضا امتلأت نفس الرجل حسرة وضاق بالحياة، وكانت طريقته فى التلاوة حزينة باكية، ولعله القارىء الوحيد الذى ظهر فى مصر، وكان يستفسر رأى السامعين فى صوته أثناء التلاوة، فكان يقرأ «والشمس وضحاها» ثم يدقق النظر فى الجالسين حوله

ويقول «إيه رأيك ياجدع»؟ وترتفع صيحات الإعجاب من كل جانب، وكان الشيخ يسر كثيرا لهذه الصيحات، فقد كان يرحمه الله يعانى مشاكل نفسية رهيبة، ربما كانت راجعة إلى ضآلة حظه فى الحياة، وكان يحز فى نفسه أنه صديق لكل العظماء فى عصره، فإذا مات قريب لأحدهم لم يدع الشيخ المنيلاوى إلا كصديق، فقد كانت طريقته فى الأداء وما فيها من غرابة تبعد بينه وبين إحياء الليالى الضخمة.

ورغم ذلك فقد ربح الشيخ المنيلاوى كثيرا، وتتلمذ عليه كثير من مشاهير القراء، منهم الشيخ عبدالعظيم زاهر والشيخ أحمد سليمان السعدنى، وكان فى حياته يتعصب للشيخ رفعت، ويرفعه فوق كل القراء، وكانت عداوته للشيخ على محمود من أسباب هذا التعصب الشديد.

حدث مرة أن كان الشيخ يوسف يقرأ مع الشيخ رفعت فى ليلة واحدة، وعلى غير عادة القراء كان الشيخ المنيلاوى يقفز فرحا من فوق الأريكة، كما تلا الشيخ رفعت آية من الآيات، وعندما انتهى الشيخ رفعت كان الشيخ المنيلاوى قد انخرط فى نوبة حادة من البكاء، ورفض أن يقرأ ليلتها، وأصر على أن يواصل الشيخ رفعت التلاوة حتى الصباح.

وقبل أن يموت اعتزل الشيخ يوسف المنيلاوى التلاوة إذ لم تعد صحته تساعده على السهر الطويل، وعاد الصفاء بينه وبين الشيخ على محمود، وكان الشيخ على أول من قرأ فى مأتم الشيخ يوسف، وكان أول من شيع جنازته، وكان الشيخ يوسف أول قارىء يقام له حفل تأبين يشترك فيه كل قراء القرآن.. ولم يحتفل بتأبين أحد بعد ذلك إلا الشيخ رفعت.. ثم مضت أعوام طويلة.. ومات الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت.. ونسى الناس الشيخ المنيلاوى.. فقد مات دون أن يترك خلفه تسجيلا يذكر الناس بصوته الباكى الحزين الذى وصفه الشيخ البشرى فقال:

«كان صوته شجيا فيه حزن، وفيه توجع، وفيه شجن.

وأتساءل الآن : لماذا لم نستمع ولو لمرة واحدة فى رمضان لصوت العبقرى العظيم الشيخ على محمود، أعظم من رفع الآذان فى تاريخ الإسلام بعد سيدنا بلال مؤذن الرسول؟

ولماذا لا يذيع التليفزيون فترة نصف ساعة على الأقل من القرآن الكريم قبل آذان المغرب فى رمضان كما جرت العادة من قبل، وبشرط أن يقدم لنا الأجود والأفضل من الموتى والأحياء على حد السواء، بدلا من تقديم أصوات تشم منها رائحة الفلوس المدفوعة ثمنا للوصول إلى الكاميرا ؟ .

وأرجو أن نأخذ المسألة مأخذ الجد هذا العام، فنعهد إلى لجنة محترمة لاختيار الأصوات التى نقدمها للناس فى فترة الفجر، بعد أن كثر اللغط حول الوسائل المتبعة للوصول إلى إذاعة الفجر فى ليالى رمضان، وهى وسائل تعتمد على تطبيق المثل الشعبى القائل: «اللى يدفع القرش إبنه يزمر» ونفس الشىء ينطبق على منشدى التواشيح، الذين يقدمون التراتيل والتسابيح فى نفس البرنامج التليفزيونى .

وألفت أنظاركم قبل فوات الأوان، إلى المنشد القزم الضرير الذى يصلح مهرجا فى سيرك، أو يصلح منشدا خلف ميكروفون الإذاعة، ولكن ليس أمام عدسات التليفزيون، لأن فى منظره وطريقة أدائه مايمس هذه المهنة العظيمة، التى احترفها يوما ما العبقرى الشيخ على محمود والعبقرى الشيخ زكريا أحمد والمنشد الكبير الشيخ طه الفشنى والشيخ الفيومى والشيخ الطوخى والشيخ عبدالسميع بيومى والشيخ النقشبندى والشيخ محمد عمران.

أما قصة الشيخ عمران فهى مأساة بكل المقاييس، فلم يظهر منذ فترة طويلة فى مجال التواشيح الدينية والمدائح النبوية صوت على هذا المستوى ولا موهبة من هذا الطراز، كان الشيخ محمد عمران أحد

السائرين على درب الشيخ على محمود وأحد الذين جددوا شباب هذا الكار بعد أن تدحرج عدة درجات على يد الشيخ نصر الدين طوبار ومدرسته، والتى أعادت فن التواشيح إلى حلقة الدراويش والمجاذيب، ومع ذلك لم نشعر كثيرا بوجود الشيخ محمد عمران بيننا، لأنه كان سلعة جيدة، ظهرت فى سوق المناخ حيث الشركات كلها مضروبة والأسهم كلها مطعون فيها، وحيث عملية البيع والشراء هى عملية خداع لا أكثر ولا أقل ، وشيلنى وأشيلك ، وترعانى بسهم أراعيك سهمين.

لم يظهر الشيخ عمران فى رمضان الماضى سوى مرة واحدة، بينما استعانوا بالشيخ القزم ثلاث مرات، ويبدو أنه كريم وسخى وإيده فرطة ومن النوع الذى يحب الخير لنفسه وللآخرين!

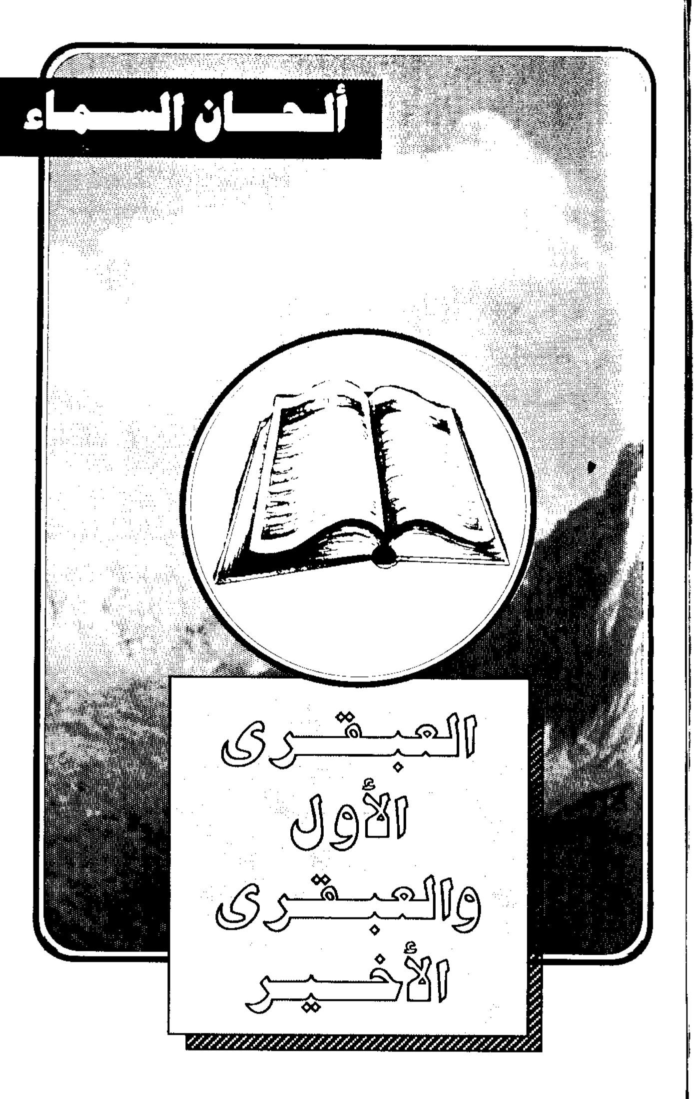
المأساة أننى سمعت بوفاة الشيخ عمران بعد وفاته بعدة أشهر، والغريب أننى سألت أصدق أصدقائه ـ جلال معوض ـ عن نبأ وفاة الشيخ، فأبدى دهشة شديدة، لأنه لم يقرأ نبأ وفاته فى أى مكان، ولاجريدة مصرية اهتمت بنشر الخبر، حتى التليفزيون الذى يحرص دائما على إذاعة نبأ وفاة سنية بحبح أو على شقوير، لم يهتم بالتنويه عن وفاة الشيخ فى أحد برامجه الدينية، وما أكثرها هذه الأيام، وبعد ذلك يتساءل البعض عن السر فى عدم ظهور أصوات جديدة واعدة..

إنها الفوضى الموجودة على الساحة، وعدم وجود الميزان الذى يزن الأمور بالعدل، فقارىء مثل الطبلاوى مثلا لا يظهر فى التليفزيون إلا مرة كل عام. بينما يظهر القارىء القلتاوى مرة كل يوم. والسبب أن الطبلاوى صاحب صوت جميل وطريقة جديدة فى الأداء، ولكنه عديم المفهومية ولا يؤمن بمبدأ يابخت من نفع واستنفع.

وهناك احتمال آخر هو أن يكون المشرف على عملية اختيار الأصوات فى أجهزة الإعلام من النوع الذى لا يفرق بين صوت الكروان وصوت الغراب .

كما أن أذواق الناس اختلفت الآن ، فلم يعد أحد يفرق بين صوت الشيخ همام وصوت الشيخ علام ، وأصبح أحمد مثل الحاج أحمد !.

ولذلك انقطعت الصلة بين يومنا هذا وتلك الأيام القديمة العظيمة الطيبة، الأيام التى تردد فى أجوائها أصوات الشيخ أحمد ندا والشيخ على محمود والشيخ القهاوى والشيخ الفيشاوى والشيخ أحمد سليمان السعدنى والشيخ محمد رفعت والشيخ الشعشاعى والشيخ محمد سلامة والشيخ عبدالعظيم زاهر والشيخ شعيشع والشيخ منصور ندا والشيخ محمد الصيفى، وأخيرا الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبدالباسط عبدالصمد رحمة الله عليهم جميعا، ونسأله سبحانه وتعالى أن يرحم أسماعنا من أصوات الشيخ منقار والشيخ ملقاط والشيخ حلبص والشيخ بحبح، وكل المشايخ فى هذا العصر الزاهر الميمون، عصر عايشة الوعد وسميرة سعيد وأصالة ولطيفة وانوشكا والمطربة سيمون !



قبل ظهور الشيخ أحمد نـدا كانت قـراءة القرآن هى مهنة من لامهنة لهم.. شخص حفظ بعض آيات القرآن بـاجتهاده الشخصى أو عن طـريق الكتاتيب التى كانـت منتشرة فى تلك الأيام، أو طالـب لم يوفق فى دراستـه فى المرحلة الابتـدائيـة.. أو رجل أعمى لم يجد وسيلة للـرزق إلا قراءة بعض الآيات فى مقـابر الفقراء.

وكـان الأجـر عشـوة فى الغالب، وأحيـانـا قـرش صـاغ، ولكن هذا القـرش صاغ كـان يكفى لإعاشـة شخص لمدة يوم كامل، وكـان إلى جانب هؤلاء بعض المشايخ الذين ينشدون التـواشيح، وكانوا معروفين عند العـامة بأولاد الليل، وكـان عملهم مقصورا على إنشاد بعض القصـائد القديمـة، وكان أشـهـرها على الإطـلاق (إذا جـاء يوم العـرض والعـرش واللقـا)، وكـانت أصـوات المنشـديـن فى هـذه الفـرق تشبـه الصوت الناتج عـن خشب يحترق، أو الصوت الذى يحدثه احتكـاك عجلات قطـار بالقضبـان عند أحـد

المنحنيات، ولم يكن لهذه الفئة أجر معلوم، ولكن الأمر كان يتوقف على شهامة صاحب الدار.

وفجأة ظهر شيخ أسمر اللون، نحيف العود. وسيم القسمات، يقرأ القرآن بشكل جميل وبطريقة مبتكرة، طريقة تجبر السامعين على الجلوس فى أماكنهم ساعات طويلة، وكما أثر الصوت الجديد على عقول ومشاعر المستمعين، فقد أحدث ثورة عارمة بين بعض المشايخ، وكان محور الثورة الذى يدور حوله النقاش والخلاف هو: هل الطريقة المبتكرة فى التلاوة، وبهذا الصوت الجميل، حلال أم حرام؟!

وترك الشيخ أحمد ندا أصحاب السؤال يتناقشون، ومضى فى طريقه يحقق كل يوم انتصارا باهرا، ويجمع فى كل يوم المزيد من المريدين والأنصار! وهكذا قلب الشيخ العبقرى أحمد ندا الموازين كلها ووصل أجره إلى خمسة جنيهات عن الليلة الواحدة، وجاب أقاليم مصر كلها يسهر فى قصور البشوات ودور العمد والأعيان، ويهرع لسماعه الألوف الذين يعجبون بصوته، ومرة أخرى ارتفع أجر الشيخ إلى عشرة ثم إلى عشرين ثم إلى أربعين جنيها.

وظل يرتفع أجره بعد ذلك إلى أن بلغ مائة جنيه عن الليلة الواحدة، وأصبح للشيخ ندا حنطور تجره ستة خيول، وقصر يؤمه الشعراء والأدباء ورجال الحكم والسياسة، وأصبحت ندوة الشيخ أحمد ندا هى الشعلة الوحيدة المضيئة وسط الظلام الرهيب الذى كان يومئذ يخيم على مصر.

ولم يدرك الشيخ ندا أنه بمسلكه هذا يشعل النار فى قلب الخديو الجالس على العرش، فكيف يجرؤ رجل مصرى من طبقة فقيرة ومعمم على الظهور فى موكب ولاموكب الخديوى، ولأن الهيافة ليس لها حدود، فقد اصدر الخديو (فرمانا) بأن يكتفى

الشيخ أحمد ندا بزوج واحد من الخيول يجر عربته الفيتون، وتصادر العربة والأحصنة إذا أصر الشيخ على الظهور فى نفس الموكب، وآثر الشيخ أحمد ندا أن يتحاشى حماقة الخديو فاكتفى بحصانين اثنين لجر عربته، ولكن بقدر نقص أحصنته ازدادت شعبيته، وصار واحدا من أعلام مصر الخفاقة، ونجما من نجوم المجتمع المصرى الذى يتردد على صالونه زبدة أهل مصر، ويقف على بابه أصحاب الحاجات، وكان الرجل كريما ينفق على سعة، ويوزع النفحات والصدقات، وكان أجره قد وصل إلى مائة جنيه ذهبا عن كل ليلة، وكان يحلو له أحيانا نثر الجنيهات الذهبية تحت أقدام أحفاده.

● كان الشيخ أحمد ندا من أوائل الذين التفتوا إلى موهبة ست الكل أم كلثوم، كان يطرب لصوتها ويقبل على سماعها فى أى وقت، وكانت هى الأخرى تحب سماعه وتطرب لطريقته الفذة فى الأداء، وقد أحيت أم كلثوم حفل زواج ابنة محمود ندا، ورفضت أن تتقاضى أى أجر، ولسوء الحظ أن الشيخ أحمد ندا رفض بشدة تسجيل القرآن على اسطوانات لايليق أن تحمل كلام الله، لأن الناس تتداولها وتحملها بأيد قذرة وتلقى بها أحيانا على الأرض.. ولوسجل الشيخ بصوته العظيم بعض سور القرآن الكريم لكسبنا الآن ثروة فنية عظيمة بلاجدال ـ رحمه الله عليه ـ.

هذا الفتى الأسمر النحيل الوسيم الذى كان أول نجم يتلألأ فى دولة التلاوة فى عصرنا الحديث، ابن حارة التلول الذى خرج من معطفه كل النجوم الزاهرة التى أضاءت دولة التلاوة بنورها، وللعلم ان الشيخ أحمد ندا هو جد الفنانة شريفة فاضل والفنانة سناء ندا.

وإذا كنا قد تعرضنا لنجوم دولة التلاوة الذين ظهروا فى نهاية

القرن الماضى وعلى طول القرن العشرين.. فيجدر بنا أن نفتح ملف حضرات أصحاب الفضيلة مشايخ هذا الزمان الذين يحترفون التلاوة، وبعضهم يتقاضى فى ليلة واحدة أضعاف ماحصل عليه العبقرى محمد رفعت فى حياته كلها، ومع ذلك فليس بين الموجودين الآن إلا قارىء واحد تستطيع أن تضعه فى مصاف العباقرة، وإلى جانبه يوجد بعض الموهوبين، ثم لاشىء بعد ذلك سوى أصوات نحاسية وطرق أداء من نوع الهردبكش ثم مقلدين، والتقليد هو نوع من التزييف.

وهؤلاء المزيفون لايقل ضررهم عن ضرر اللحمة الفاسدة المستوردة، أو ضرر الشاى المخلوط ببرادة الحديد، العبقرى الوحيد الموجود على الساحة الآن هو الشيخ محمود الطبلاوى، وهى عبقرية لادخل له فيها لأن الصوت موهبة من عند الله، وقد وهبه الله أحبالا صوتية ليس لها نظير، وصفها العبقرى محمد عبدالوهاب بأنها معجزة، لأنها تؤدى النغمة المستحيلة، وقد سبق للعبدلله نشر هذا الكلام وعلى أوسع نطاق فى حياة العبقرى الراحل عبدالوهاب، وعبدالوهاب سميع قرآن نادر المثال، وعندما يقول عبدالوهاب مثل هذا الكلام فلابد أن نصدقه.

ولكن لأن الشيخ الطبلاوى ليس فيه كرم أحمد ندا، ولاتقوى الشيخ رفعت، ولاطيبة مصطفى إسماعيل، ولاكياسة الشيخ عبدالباسط عبدالصمد، لذلك حاربه الجميع، وعقدوا حلفا ضده.

هل تصدقون أن أعظم قارىء، يعيش بيننا اليوم، موجود احتياطى فى التصنيف الذى وضعه عباقرة التليفزيون المصرى؟!

إن هؤلاء القتلة اشبه بمدرب كورة حمار أو صاحب غرض يضع محمود الخطيب على الدكة احتياطى ويضع على رأس التشكيل الكابتن حكشة والكابتن أبوسريع!! لأن الكابتن حكشة

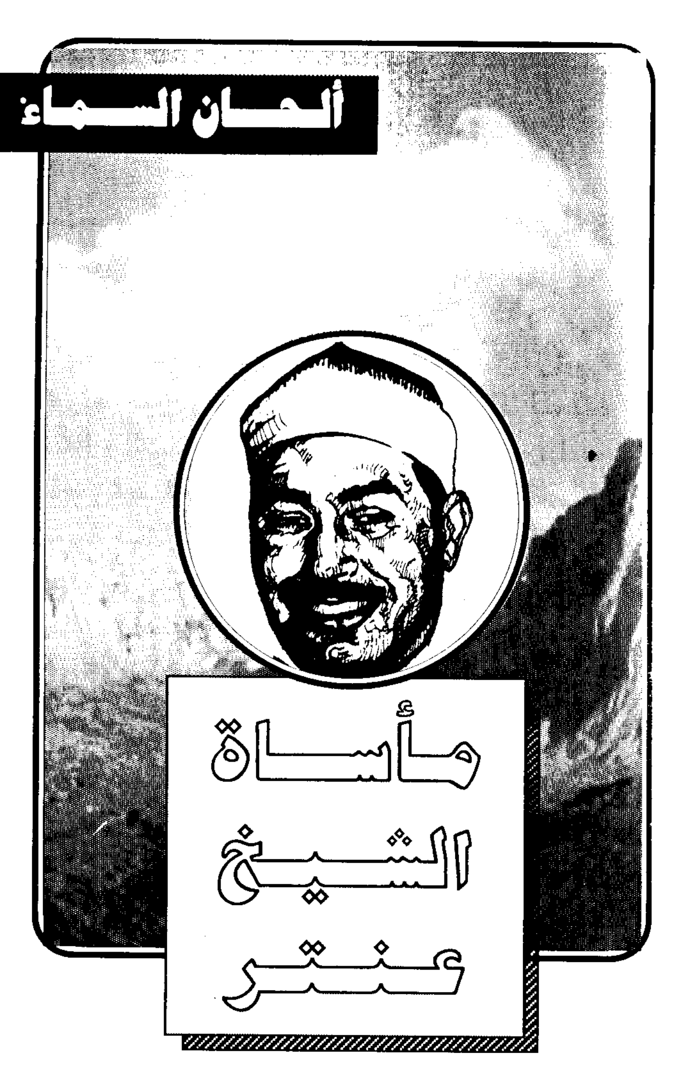
إيده فرطة ، ولأن الكابتن حكشة اللى فى جيبه مش له!!

هل تعلمون أن التليفزيون لاينقل صلاة الجمعة من جامع الأزهر بسبب وجود الشيخ الطبلاوى قارىء السورة.. تصوروا!! إنها مأساة صدقونى أن يترك مثل هذا الأمر لبعض الجهلة أو بعض الأدعياء، فيحجبوا عنا أصحاب الأصوات الندية ويسلطوا علينا أصحاب الأصوات الخشبية، لالسبب إلا لسبب واحد.. اللى مامعهوش مايلزموش!!

والشيخ الطبلاوى بدأ حياته موظفا فى شركة ماتوسيان للدخان بالجيزة، وكانت وظيفته هى قراءة القرآن ورفع الأذان فى مسجد الشركة، وسرعان ماشتهر أمره فى ربوع محافظة الجيزة، ولكنه لم يحقق الشهرة التى يستحقها لأنه عجز عن الوصول إلى أجهزة الأعلام، لأن الطريق إليها غير سالكة وغير مأمونة، وتحتاج إلى بهلوانات تجيد عملية القفز واللف والدوران، وهى أشياء لايجيدها الشيخ الطبلاوى.

كان السبب فى شهرته تلك التسجيلات التى سجلتها له شركة منتصر، والتى كان يتولى الاشراف الفنى عليها المرحوم الفنان مأمون الشناوى، والذى صرخ عند سماعه صوت الشيخ: هذا الشيخ سيكون هو قارىء الزمن الآتى!! وأدت هذه الأسطوانات إلى انفجار شهرة الشيخ كالبركان، وكانت السبب فى وصوله إلى أجهزة الاعلام فى مصر وخارجها.

وأذكر انني لم أستمع إليه فى مصر فى بداية أمره، والذى لفت نظرى إليه هو الأستاذ الشاعر العراقى الكبير حميد سعيد الذى طلبنى ليعرف رأيى فى صوته. ولما أبديت جهلى به اندهش كثيرا، وقال معلقا: عندما اسمعه انفجر باكيا، وأضاف: إن صوته يحمل هموم وأحزان كل العرب القدامى والمحدثين، وبعدها قررت أن



أستمع إليه، وجاءنى صوته فى الصباح الباكر عبر إذاعة الكويت، ولم أبك كما فعل حميد سعيد، ولكنى تأكدت أن مصر ولادة، وأنها رغم المحنة وغدر الزمان قادرة على العطاء.

هذا صوت يذكرك بالعباقرة الأوائل، منصور بدار، وعلى محمود، ومحمد رفعت ، والشعشاعى ، ومصطفى إسماعيل ، وعبدالباسط عبدالصمد، إنه حبة من السبحة العظيمة، وهو لبنة فى الثريا البهية التى تجمع كل هؤلاء، ويا ألف خسارة لأن العد التنازلى بدأ بالنسبة له فهو الآن فى الثانية والستين ومرض السكر بدأ يداعبه، ولكنه بالرغم من ذلك لايزال الأوحد فى دنيا التلاوة، ونرجو أن يتدخل رئيس الوزراء لدى عباقرة التليفزيون لعلهم يفكون الحصار الذى ضربوه حول الشيخ على أساس أن الصوت النادر ملكية عامة ومشاع لكل المصريين، ومن يحجبه عنهم يكون قد أتى أمرا من شأنه الاضرار بمجموع الشعب المصرى، ويستحق العقاب الشديد!!

إذا كان صوت الشيخ الطبلاوى هو الصوت العبقرى الوحيد فى دولة التلاوة، هناك أصوات كثيرة موهوبة فى مقدمتها صوت الشيخ مصطفى غلوش. ولقد أخطأ الشيخ غلوش فى بداية حياته عندما نقل طريقة الشيخ مصطفى إسماعيل نقل مسطرة، وبالطبع كان الميزان فى صالح الشيخ مصطفى إسماعيل، ثم أدرك الشيخ غلوش بعد سنوات طويلة أنه أخطأ الطريق، ولكنه نجح فى الانفصال عن جاذبية الشيخ مصطفى إسماعيل، وأصبح له مدار خاص به، فصار واحدا من القراء الذين يشار إليهم بالبنان فى بلاط دولة التلاوة.

ولعل الشيخ مصطفى إسماعيل هو القارىء العبقرى الوحيد الذى قلده ٩٠٪ من قراء القرآن الكريم الذين جاءوا من بعده، والسبب أنه الوحيد أيضا الذى يؤدى السهل الممتنع، شأنه فى ذلك شأن بيرم التونسى فى الشعر العامى، وشأن سيد درويش فى الموسيقى، وشأن محمد التابعى فى الكتابة الصحفية.

وإذا كان التقليد مغفورا للموهومين من أشباه الفنانين، فهو أمر لايغتفر بالنسبة لأصحاب المواهب، ولاشك أن الشيخ غلوش واحد منهم! ويأتى بعد الشيخ غلوش الشيخ أحمد الزريقى، ويتمتع

بصوت موهوب وله شخصيـة، ولكنه للأسف الشديد ارتكب نفس الخطأ الـذى وقع فيه الشيخ غلـوش، فقـد بدأ حيـاته بـالسير على طريق الشيخ محمد صديق المنشـاوى، وبالرغم من أن التقليد كان واضحـا ومعيبا إلا أن الشيخ عبـدالبـاسط عبـدالصمد تحمس لـه كثيرا، ورشحــه كأعظم قــارىء بعـد جيل العمالقـة، ولم يكن هـذا صحيحـا على الاطـلاق، ولكنـه كـان مــوقفـا تكتيكيـا من الشيخ عبدالباسط عبدالصمد فرضته ظروف المنافسة وقواعد السوق.

وكما حدث فى عالم الأدب عندمـا رشح الدكتور يوسف إدريس الكاتب أحمد برعى خليفـة له فى مجال القصة القصيرة، وكما رشح حسين شفيق المصرى الزجال أبوبثينـة أميرا للزجالين، مع أن بيرم التونسى كـان حيا يرزق. ولكنــه كان منفيا خـارج مصر ومطاردا كالكلب المسعور، ولكنه الخوف. أحيانا والاسـترزاق أحيانا، والطمع أغلب الأحيــان. ولم يلمع الشيخ الــرزيقى إلا بعــد أن تمكن من الافـلات خـارج المجـال الجوى للشيخ محمـد صـديق المنشـاوى وصارت له طريقته المستقلة، التى يتبعها فى الوقت الحاضر.

ويأتى بعــد هـؤلاء الشيـخ على حجـاج الســويسى، والشيخ عبدالعـاطى ناصف، وإن كنت لم أسمع الشيخ الســويسى إلا منذ سنوات قليلة مع انه تجاوز السبعين من عمـره المديد، وهـى مسألة غـريبة للغـاية، ولاأعـرف السر فى احتجـاب الشيخ كل هذا الـوقت الذى مضى، ولكنه دليل على أن المواهب الجيدة قد تختفى فى ظلال العبقريات العظيمة.

هناك أيضا من الجيل الصاعد قارىء شاب اسمه السروجى على مأاعتقد وهـو من منيا القمح، وقد استمعت إليه فى ذكـرى المرحوم وجيه أبـاظــة، وفى اعتقـادى أنــه يستطيع أن يشق طــريقــه إلى الصفوف الأمامية لو ابتعد عن الصياح الشديد، ولوتدرج بصوته من

القرار إلى الجواب إلى جواب الجواب بطريقة مدروسة، لأن الملاحظ أنه يبدأ وينتهى فى طبقة واحدة وهى جواب الجواب، وهناك مئات من القــراء على الساحة اليوم، ولكنهم للأسـف الشديد مــن طبقة «أحمد زى الحاج أحمد» ولافضل لأحدهم على أحـــد منهم إلا بالتقوى!

ولكن المأساة الحقيقيـة فى هذا العصر هى مأســاة الشيخ مسلم عنتر ، فهو صاحب صــوت جميل للغاية، وله طـريقة فذة فى الأداء، واستطاع أن يفــرض نفسه بموهبتــه على إذاعات العـالم الاسلامى والعالم العربى، وكان صوته مادة ثابتة فى برامج الاذاعة الايرانية.

وبــالـرغم من أن الشيخ عنتر نشأ وتـرعـرع فى مـدينـة شيخ العرب السيد البدوى، وهى المدينة التى خرج منها الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ محمـد مجد والشيخ شفيق أبـو شهبـة وعشرات آخرون من الموهــوبين.. إلا أن الشيخ مسلم عنتر كان أشبـه بنبتة غــريبة، واستطـاع بمـوهبته وحـدهـا أن ينمو دون دراســة ودون معرفـة بعلم القراءات، ودون أن يتدرب على يد شيخ يلقنــه أصول القراءة، كـان صوتــه هو سلاحــه الوحيد فى المعـركة، وهــو سلاح فعـال بلا أدنى شـك، ولكن الشيخ صاحب الصــوت الجميل كـان مجردا من التروس والدروع، وهى أدوات ضروريـة إذا أراد المقاتل أن يواصل المعركة حتى النهاية.

هنا كانت مأساة الشيخ الذى تصور أن القراءة عملية اجتهادية لاتحتاج إلى ضوابط، وبـالتاكيد لم يكن الشيخ مسلم عنتر يدرك أن دراسة علم القراءات ضرورية للقارىء..

وربما عــرف من بعض محبيه أن رفعت كـان يقـرأ بالقــراءات السبع ، وأن القــراءات السبع تعنى أن يقـرأ الآيـة الـواحـدة سبع مرات، كل مــرة بطريقة مختلفة. لم يعـرف الشيخ أن علم القراءات

يسمح للقارىء بالتصرف، ولكن فى حدود مفروضة، ولا يمكن تجاوزها أو الخروج عنها ، منها ـ مثلا ـ أن القارىء يستطيع قراءة الفاتحة على النحو الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . (مالك) يوم الدين.

وباستطاعته أيضا أن يقرأها على النحو التالى: بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم (ملك) يوم الدين. وعلى نفس الطريقة يمكن قراءة (الأرض) ويمكن قراءتها على نحو مختلف، على النحو التالى: « ولَرْض » ولمن عقبى (الدار) يمكن أن تتحول إلى: ولمن عقبى (الدير)، ولكن الشيخ مسلم عنتر تصور أن القارىء حر التصرف يستطيع أن يقول مايريد وقت أن يشاء وبالطريقة التى تروق له.

استمعت إليه مرة يقرأ بصوت جميل للغاية هذه الآية: ﴿إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) ونطق (إبراهيم) مرة نطقا سليما.. ﴿إبراهيم﴾ ثم أعادها ﴿إبراهام﴾ ثم أعادها ﴿براهيم﴾ ثم أعادها ﴿برهوم﴾. وهى قراءة خطأ بالطبع وليس لها أية علاقة بعلم القراءات.

ولم يستمع العبد لله إلى صوت الشيخ إلا عند تواجدى خارج مصر فى زمن الشتات والضياع، وعندما عدت إلى مصر اكتشفت أن الشيخ منع من القراءة وبقرار من الأزهر، وبالطبع كان الأزهر على حق.

ولكن العبد لله كان يتمنى لو كان قرار الأزهر تبعه قرار آخر بالعمل على تدريب الشيخ وتأهيله على يد أستاذ كبير تمهيدا لعودته مرة أخرى إلى ساحة التلاوة.. ولكن الأزهر ـ للأسف الشديد ـ منع الشيخ من القراءة ولم يحاول أن يدله أو يساعده على سلوك الطريق المستقيم.. مع أن أشرطة الشيخ مسلم عنتر

كانت تنافس أشرطة أحمد عدوية وحسن الأسمر فى ريف مصر وفى أحيائها الشعبية، كان يمكن أن نكسب قارئا عظيما وصاحب موهبة فذة، ولكننا لم نفعل ذلك ولم نحاول، واذكر أننى قمت بمحاولة وأرسلت إليه للحضور إلى القاهرة أو السماح للعبد لله بلقائه فى طنطا، ولكن مرت عشر سنوات طويلة ولم أتلق منه جوابا حتى الآن، ويبدو أن الضربة كانت شديدة على الشيخ فلم يحتملها، ويبدو أنه آثر الاختفاء بعيدا عن الأنظار مؤمنا بأن ماجرى له هو قضاء الله وقدره، ولعله لم يدرك حتى الآن أنه هو نفسه السبب فى كل ماحل به!

وإذا كنا لم نتناول سيرة الشيخ أبو العينين شعيشع مع مجموعة المشايخ الذين يمارسون المهنة الآن، فالسبب أننا ذكرناه من قبل مع جيل العمالقة الذين ظهروا فى بدايات القرن، ولأن الشيخ شعيشع ـ مد الله فى عمره ـ كان زميلا للشيخ الشعشاعى والشيخ منصور الشامى الدمنهورى والشيخ محمود على البنا، وظهر قبل الشيخ عبدالباسط عبدالصمد والشيخ محمد صديق المنشاوى، ولأن السن لها أحكام، فالشيخ شعيشع لايمكن أن يخضع للمقارنة مع من يمارسون المهنة اليوم.

هناك أيضا بعض الخرافات التى يرددها بعض المتحمسين أو بعض الهواة من المستمعين، والعبد لله يتلقى بين الحين والآخر خطابات من الزقازيق وطنطا وبنى سويف والمنيا وشبين الكوم والاسكندرية والمنصورة وبورسعيد، خطابات يرسلها بعض المستمعين الطيبين وكل منهم يقسم بأغلظ الأيمان أنه يوجد بمدينته قارىء (مظلوم) لو واتته الفرصة فسيصبح خليفة للشيخ محمد رفعت أو الشيخ مصطفى إسماعيل، وهذه الخطابات التى أتلقاها هى غالبا من أقرباء الشيخ (المظلوم) أو من أصدقائه، أو من بعض أصحاب النوايا الطيبة الذين لايفرقون بين صوت الشيخ

محمد رفعت وصوت العبدالله والذين ينطبق عليهم المثل القائل «كله عند العرب صابون» وأقول لهؤلاء جميعا: كان يمكن أن تموت موهبة عظيمة لو ظهرت فى بداية القرن وحتى منتصفه.

ولكن ومنذ السبعينيات من هذا القرن لم تعد هناك حجة لصاحب موهبة فى عدم الظهور.

فقد كانت المنطقة العربية كلها وعلى امتداد رقعتها ليس فيها صوت مسموع إلا صوت إذاعة القاهرة، وصوت إذاعة الشرق الأدنى من حيفا، وصوت الإذاعة البريطانية فى لندن.

وكانت الإذاعة المصرية يعلو صوتها فى فترات قليلة من اليوم.. فترة صباحية ثم فترة بعد الظهر، ثم فترة مسائية وينتهى الإرسال فى الحادية عشرة مساء.

وكانت الإذاعة تبدأ برامجها بالقرآن الكريم وتختمها بالقرآن الكريم، بالإضافة إلى فترة مدتها نصف ساعة ، من الساعة الثامنة إلى الثامنة والنصف مساء كل يوم، أما الآن فحدث ولا حرج.. إذاعة رأس الخيمة وإذاعة أم القوين وإذاعة الفجيرة وإذاعة الشارقة وإذاعة دبى وإذاعة أبو ظبى.. ست إذاعات رئيسية فى دولة الإمارات بعضها له عشر شبكات، وإذاعة عمان فى دولة مسقط وإذاعة الدوحة من قطر وإذاعة البحرين وإذاعة الكويت. وفى السعودية شبكة إذاعية تغطى الكرة الأرضية كلها.

وفى العراق إذاعة بغداد وإذاعة صوت الجماهير الموجهة للعالم العربى.

وفى سوريا نفس الشىء.. وفى لبنان إذاعة رسمية وعشرون إذاعة أهلية.. وفى الأردن شبكة إذاعية قوية وإذاعة فلسطين بالإضافة إلى عشرات الموجات من القاهرة.. بالإضافة إلى الإذاعة المتخصصة وهى إذاعة القرآن الكريم.

ثم اذهب إلى المغرب العربى لتجد إذاعة ليبيا وإذاعة البحر

الأبيض وإذاعة صوت الشعب والإذاعة العربية من مالطا، وقل نفس الشىء عن تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.. هذا عدا اليمن والسودان وإريتريا وجزر القمر والصومال، ثم عندك بعد ذلك إذاعات العالم الإسلامى، من أندونيسيا إلى البوسنة وجمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق، ثم خذ عندك بعد ذلك البرنامج العربى فى الإذاعة البريطانية وإذاعة مونت كارلو، وإذاعة الشرق من باريس أيضا، والإذاعة العربية فى هولندا، وخمس إذاعات عربية فى الولايات المتحدة، وعشر إذاعات عربية فى أمريكا اللاتينية. وإذاعة عربية قوية فى استراليا.

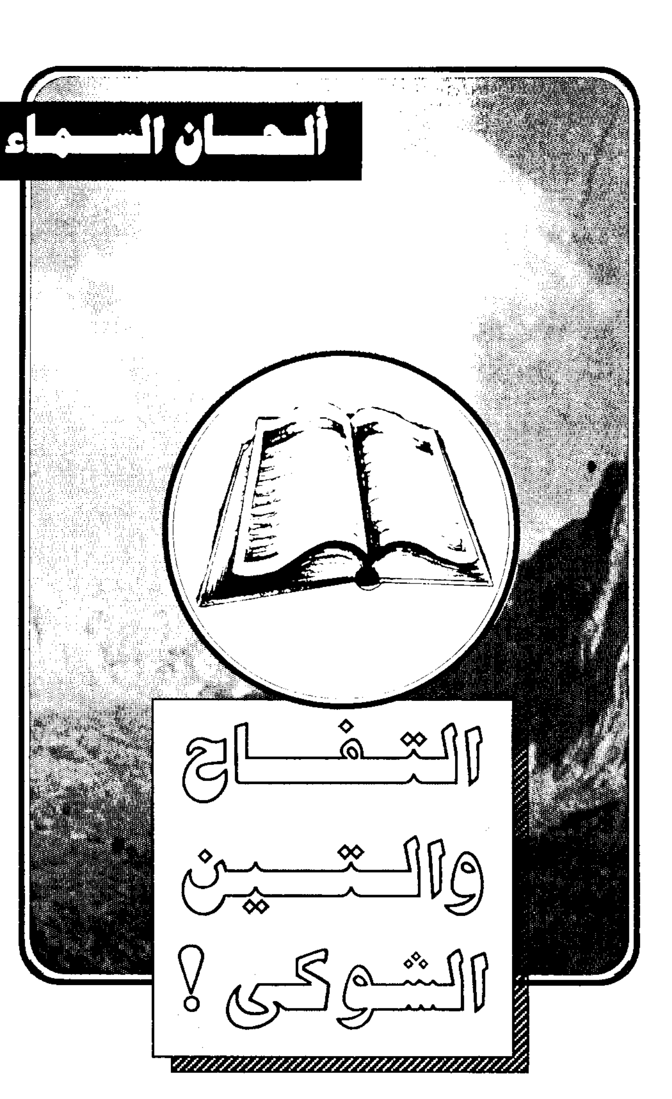
وأستطيع أن أعد لك مائة إذاعة أخرى منها على سبيل المثال الإذاعة العربية من كالادونيا وهى جزيرة وسط المحيط الهادى، نفى إليها الثوار الجزائريون بعد اجتياح فرنسا للجزائر.

بالإضافة إلى محطات التليفزيون التى بلغت ١٠٠ محطة فى العالم العربى منها ٦محطات فى دبى وحدها و٤ فى أبو ظبى ومحطة تليفزيون قوية فى الشارقة، ثم هناك محطات الفضائية من أول محطات الشيخ صالح كامل إلى محطات الشيخ عبده كامل ومحطات الشيخ أحمد كامل إلى آخر عائلة كامل التى سيطرت على الموجات الفضائية، وهى الأخرى تذيع القرآن الكريم أحيانا وتستعين بأصوات تحتاج إلى بلاغ للشرطة لكى تنقذ المشاهدين من أصواتهم التى تشبه صوت ساقية خربانة.

ولك ـ عزيزى القارىء ـ أن تحسب كم عدد القراء اللازمين لملء كل هذه الساعات من الإرسال فى الإذاعة والتليفزيون.

لا أقول كم عدد الأصوات الموهوبة التى تحتاجها كل هذه الموجات والشبكات فى الكرة الأرضية؟

ولكنى أقول كم عدد الأصوات نصف الموهوبة أو حتى ربع



الموهوبة أو حتى خمس الموهوبة التى نحتاجها فى الوقت الحاضر؟

العبد لله تعرف على نصاب مصرى ظريف نصب نفسه رئيسا للفلاحين بالعراق، ثم افتتح لنفسه محلا للجزارة وفرض إتاوات على الفلاحين المصريين هناك، ولما طرده العراقيون هناك نتيجة الشكاوى المتعددة فى حقه اضطر إلى النزوح إلى الكويت، وبعد فترة شاهدته على شاشة التليفزيون الكويتى يؤدى التواشيح الدينية ويرتدى زى المشايخ ويغطى قبح صوته وعدم إلمامه بأبسط قواعد هذا الفن بالبكاء الشديد.

وأغرب شىء هو أن بعض المسنين من أهل الكويت كانوا يبكون معه ظنا منهم أنه يبكى من شدة الورع والتقوى!

وإذا كان النصاب الظريف قد وصل إلى أحد أجهزة التليفزيون فهل يمكن أن تكون موهبة عظيمة موجودة بيننا ثم لايسمح لها بالظهور؟

العبد لله يقول لأى طيب أو ساذج أو موهوم: دلنى على واحد شبه موهوب، وأنا أضمن له الشهرة والمجد والرزق الحلال الوفير، هذه هى الحقيقة.. أيها السادة: لقد أصاب البوار حقل المواهب فى هذا المجال الذى كان خصبا فى الماضى وكنا نشكو من وفرة إنتاجه، ثم أصبحنا نشكو الآن من خرابه، ومن انتشار البوم والغربان.

ونسأل الله الستر والصبر والقدرة على احتمال بعض الأصوات التى تفرض علينا الآن لأسباب بعضها مجهول وبعضها معروف للجميع.

واللهم عفوك ورضاك يارب.

فى هذا الفصل نـذكر المشـايخ الذين رتلـوا كتاب اللـه فى العصر الحديث ، مـن أول الشيخ أحمد نـدا، إلى الشيخ فؤاد محجوب ، اخـر طبقة ظهرت فى دولة التلاوة، وإذا كنا قـد تعرضنا للعباقـرة والموهوبين، فسيكـون حديثـا هنا عن المقلـدين، وعندمـا يغيب العبـاقـرة والموهـوبـون ، يحتل المقلـدون مكـان الصدارة،وأبـرز مثال على هؤلاء الدكتـور نعينع، إنه صـورة طبق الأصل مـن الشيخ مصطفى اسماعيل، ولكن ما أبعد الفرق بين الصورة والأصل.

وإذا كان صـوت مصطفى اسماعيل من معـدن الذهب الـرنان، فصـوت الشيخ نعينـع من معـدن الألمونيـوم، ولكـن بسبب غيـاب العباقـرة ـ وعدم وجـود سميعة من بتـوع زمان ـ احتل الـدكتور نعينع مكان الصـدارة، وأصبح القارىء الـرسمى للدولـة ، مع أنه يأتى فى الترتيب بعد عشرات من الأحياء، فالشيخ محمد بدر حسـين يفضله بالتأكيد، ولكن لأنه الدكتور ولأنه يرتدى البدلة أصبح أثيرا لـدى المصالح الحكـوميـة، على أساس أن لقـب الدكتـور أصبح فى الزمن الحاضر زينة.. ويخلق ما لاتعلمـون، وعلى الرغم من التكريم الحكـومى والحفـاوة الرسميـة، إلا أنك ستجهـد نفسك لاكتشـاف شخصية القارىء إذا فتحت الراديو فجـأة وكان الدكتور نعينع هو

القــارىء فستظـن فى البــدايــة أنك تستمــع إلى الشيخ مصطفى اسماعيل، وفى الآية التاليـة سيخيل إليك أنك تستمع إلى الشيخ طه الفشنى، ولـن تستطيع اكتشـــاف الاسم الحقيقـى إلا إذا انتهت التلاوة وأعلن المذيع اسم القارىء.

والسبب ان التقليد لايضع بصمــة ولايترك أثرا، ولـذلك سيدوخ دوخة الأرملة كل من يحاول أن يميـز الفروق بين فلان وعلان من السـادة الـذين يحترفـون التـلاوة هـذه الأيـام، لأن كل الأصـوات الجديــدة نسخ مكــررة، وأصحــابها مقلــدون وليس لهم سكك مختلفة، ولكنهـم جاءوا جميعا مـن طريق واحـد وساروا على درب واحد.

وزمان... كـان لكل صوت سمــة خاصــة وملامح مميـزة، وكل قارىء كان لـه لون وله طعم، وكانوا مثل الأشجـار المثمرة فى جنة فواكـه، فإذا كان صـوت الشيخ محمد رفعـت هو التفاح، فـالشيخ مصطفى اسماعيل هـــو العنب البنــاتى، والشيــخ عبــدالفتــاح الشعشاعى هو الرمان، والشيخ عبـدالباسط عبدالصمد هو الخوخ، والشيخ الحصرى هـــو الجوافـة، والشيـخ المنشـاوى هـــو البلح الزغلـول، والشيخ عبدالعظيم زاهـر هو الكمثـرى، والشيخ محمود على البنا هـو البطيخ الشلين، والشيخ محمد صديق المنشـاوى هو التين البرشومى، والشيخ محمود عبدالحكم هو الموز المغربى.

تعالوا الآن نتشمم رائحة الموجودين على الساحة، فسنجد أنهم جميعا لهم رائحــة النبق والدوم والجميـز والتين الشوكى، بعضهم بدأ بـداية طيبــة مثل الشيخ عبدالواحـد زكى، ثم أصابتـه العدوى فأصبح كـالآخـرين، وسـار على درب الشيخ هـاشم هيبـة، وهـو اختيار غريب للغاية، لأن الشيخ هاشم هيبة نفسه ليس من الطبقة الأولى فى دولة القـراء، ولأن التقليد صـار هو الأصـل الآن، فستجد

أن دولة التـلاوة انقسمت إلى قبائل وإلى عشائر. هنـاك عشرة قراء على الأقل يقلدون الشيخ الطبلاوى، أشهرهم القارىء فـؤاد محجوب والقــارىء نجيب شحاته والقارىء أسامة أبـو النور والقـارىء شريف محمد والقارىء عبدالسلام درار.

وهنــاك عشرة قــراء على الأقل يقلدون الشيخ محمـد صـديق المنشاوى، أشهـرهم هو محمد صلاح شمس الدين ومحمـود أبو الـوفا الصعيـدى، وهنــاك أكثر من عشرة قراء يقلـدون الشيخ مصطفى اسماعيل، أشهـرهم طبعا الدكتور نعينع والشيخ فتحى المليجى، وهناك الكثيرون يقلـدون الشيخ عبدالبـاسط عبدالصمـد، أشهرهم الشيخ محمـد البحيرى، وهناك الشيخ صـلاح يـوسف الذى يقلـد الشيخ عبدالعزيز على فرج، وهناك المبتهل الشاب الشيخ البساتينى الذى يحاول السير على طريق الشيخ النقشبندى.

وكنت أتمنى أن يمنحنى الله القـوة والصحــة لكى اتتبع واتعقب كل الســادة الذين يحترفون هـذه المهنة فى الـوقت الحاضر، ولكنى اكتشفت اننى لا أستطيع القيـام بهذه المهمـــة بعـد أن وهن العظم منى واشتعل الـرأس شيبـا، ولم تعـد أعصـــابى تحتمل كل هـذه الأصـوات النحـاسية التى أصـابت أذنى الـوسطى، فصرت أتـرنح أحيانا وأسقط على الأرض أحيانــا كلما استمعت إلى صوت من هذه الأصـــوات التى ينطبق عليهــا ذلـك الهتـاف الشهير لعمــدة الفن المصرى مولانــا يوسف بك وهبى، والذى كـان يهتف به فى المواقف الصعبة وفى الحالات الحرجة، وهو هتاف يا للهول!

وقـد يسأل ســائل.. ومــا العمل؟ هل نسكـت؟ هل نيأس؟ هل نصبر على مــا ابتلتنــا بـه الأيـــام؟ وأجيب.. لا، لانسكت ولانيأس، ولكن هناك حلولا كثيرة، أهمها تعديـل النظام المعمول به فى اختيار الأصوات الجديدة فى الإذاعة والتليفزيون، وأول إجراء يجب اتخاذه

هو إلغاء لجنة الاستماع المكونة من فضيلة الشيخ برانق والشيخ حبة وغيرهما، وأن نضم إلى لجنة الاستماع إلى جانب أصحاب الفضيلة المشايخ بعض السادة الذي نثق فى حسن استماعهم وفى عدالة أحكامهم. وأرشح لهذه المهمة الشيخ أبو العينين شعيشع، فهو من الرائحة الزكية القديمة، وهو خبير فى علوم وفنون القراءات، وهو الذى حكم منذ سنوات بإفلاس دولة التلاوة من الاصوات الجديدة الجميلة. وأرشح أيضا سميعا قديما وعظيما وخبيرا وأستاذا فى فن الموسيقى والألحان والمقامات، وهو الناقد الفنى الكبير الأستاذ كمال النجمى والعبد لله واثق من أن أية لجنة تضم مثل هؤلاء الثلاثة ستكون قادرة على اختيار الأفضل والأحسن، وبشرط أن يعرض عليها كل الأصوات التى تذاع الآن فى الإذاعة والتليفزيون.

وهناك اقتراح آخر أرجو أن يبحثه الوزير صفوت الشريف لأنه كفيل برفع مستوى الغناء والموسيقى والإنشاد الدينى، وحتى التلاوة. بأن يستثنى شرط سن المعاش بالنسبة لمن يتولى منصب مدير الاستماع فى الإذاعة. لأن الأمور أخذت طريقها إلى الانحدار بعد محمد حسن الشجاعى ومدحت عاصم. ولابد أن نعهد بهذه المهمة إلى خبير حقيقى، وليس إلى موظف حكومى بدرجة مدير، وأرشح لهذه المهمة فى الوقت الحاضر المؤرخ والناقد الموسيقى العظيم محمود كامل.

إن مصر تستحق أن تكون موسيقاها أرفع مما هى عليه الآن، وأن تكون فنونها كلها أروع مما هى عليه الآن، وعيب أن ينحدر فن التلاوة عندنا إلى هذا السفح الذى وصل إليه، وعيب أن نلجأ إلى تقليد بعض المدارس الغربية على فننا، عيب أن يلجأ بعض المنشدين وبعض القراء إلى هذا الطريق، فمصر هى التى أنجبت

الشيخ أحمد ندا والشيخ محمد رفعت والشيخ على محمود والشيخ مصطفى اسماعيل والشيخ الشعشاعى والشيخ زاهر والشيخ عبدالباسط عبدالصمد .

وحبذا لو اهتممنا كثيرا بمدارس تحفيظ القرآن الكريم، فهى المنبع الذى يمدنا بالقراء والمبتهلين. لأن هذه المدارس هى التى حلت محل الكتاتيب القديمة، التى كان لها أعظم الفضل فى الحفاظ على استمرارية الفن العظيم، فن التلاوة والابتهالات .

وفى النهاية ينبغى ألا ننسى سببا آخر فى سقوط الفن وانهياره، هو انتشار هذه الشركات التى لا أصل لها ولافصل. والتى تنتج أشرطة التسجيل، والتى انتشرت كالوباء فى سيارات الأجرة، والعبد لله يرى مكافحة هذه التسجيلات والقبض على أصحاب هذه الشركات، التى يمتلكها ويديرها عينات من البشر، أغلبهم بلا صنعة، وليس لهم أدنى صلة بالذوق أو بالفن، والتى أساءت إلى شعب مصر وإلى تراثه المجيد وتاريخه العريق.

وبعد .. أرجو مخلصا أن يكون التوفيق قد حالفنا فى عرض وجهة نظرنا، وأن يكون الصواب حليفنا فيما عرضنا عليكم. وأرجو.. إذا كنا قد أسأنا التعبير أن يسامحنا الذين أسأنا إليهم والذين أحسنا إليهم أيضا. إذا نسينا أو أخطأنا، فلم يكن لنا هدف إلا التعبير عما نحسه ونشعر به، ولم يكن لنا هدف إلا النهوض بهذا الفن والعودة به إلى عهوده الزاهرة، ولم نفعل سوى الاجتهاد، وفى ديننا الحنيف، وللمجتهد المخطىء أجر وللمجتهد المحسن أجران ..نسأل الله أن نكون من أصحاب الأجرين، ونشكر الله إذا كنا من أصحاب الأجر الواحد!

رســـالـة:

يحـيى عاصـم
YAHYA ASSIM
ALVEN PALACE HOTEL
R .JACOB RICHLIN 208
JOINVILLE - S.C.
BRAZIL

٧ أكتوبر ١٩٩٥

« الشيخ «محمود السعدنى»

الويل لك ثم الويل لك، وعفـا الله عنك.إذ كيف سولت لك نفسك الأمـارة بالحسنى والجمـــال، ان تتجـاهل ـ وانت الخبير بشئــون التلاوات والتالين وألحان السماء قارئا عملاقا لا يضاهيه قارىء فى حـلاوة صــوته. لا من قبل ولا من بعـد، ذلك هـو الشيخ الكـامل: كامل يوسف البهتيمى.

كيف يجوز لذواقـه وسمِّيع مثلك أن تصدر منه هــذه الفعلة؟ فى حين أنك تحشر الشعشاعى والحصرى بين العمالقة، وهما ليسا من العمالقة فى شىء، إلا إذا كانت «العملقــة» تعنى ضخامة الجسم أو صوتا خشنا، وهذا شىء وحلاوة الصوت ولذة الألحان شىء آخر.

وإنقـاذا للمـوقف الـذى وضعت نفســك فيـه بتجـاهلك الشيخ البهتيمى، مـا عليك إلا أن تحدثنا فى مقـال قـادم عن شيخنا هــذا، أصله ونشأته، إلى أن وافته المنية فى أحد مساجد القاهرة وهو قائم

يرتل ويتلـو إلى جـانـب زميلـه العمـلاق الآخـر محمـــد صـديق المنشاوى.

«هل انت فاعل ذلك؟

الشيخ مصطفى اسماعيل والآخرون:

إذا كان لكل مـن الشيـوخ القـراء : محمـــد رفعت، والبهتيمى والمنشاوى وشعيشع وآخرين أسلـوبه الخاص، فذلك الأسلوب إنما هو أسلوب واحد لا غير. أسلـوب جميل ولكنه أسلوب واحد ووتيرة واحدة.

أما مصطفـى اسماعيل فقد كان مجمـوعة كبيرة من الأســاليب، وكـان متمكنا من الألحان والأنغـام إلى حـد لم يضاهــه أحد فيــه. وكـان يتـلاعب فى الألحان والأنغـام كما تتـلاعـب أنت بـالكلمات والجمل فى كتاباتك الساحـرة الساخرة، وكما كان يفعل أخ لك من قبل اسمه «برنارد شو».

وقد سألت أنا ذات يوم عملاقا آخر فى ميدان آخر ذا صلة وثقى بألحان السماء عن أحسن قارىء فكان جوابه: مصطفى اسماعيل، ومافيش غيره. هـذا ما قـاله لى محمـد عبدالـوهاب، مطـرب الملوك والأمراء والصعاليك والغلابة.. فى كل مكان.

اشيخ أم شيخان ؟

على أن الشيخ مصطفى اسماعيل لم يكن شيخـا واحدا كســائر القراء بل كان شيخين اثنين.

أما مصطفى اسماعيل الشيخ الأول فهو الذى نستمع إلى تلاوتة فى الاذاعات خمس دقائق أحيانا، وثلاثين دقيقة أحيانا أخرى.

وهو فى هـذه التسجيلات المذاعـة لا يختلف عن القـراء الباقين. فهـو قـارىء عــادى، بل هــو فى هـــذا دون البهتيمى وشعيشع والمنشاوى، وهؤلاء جميعا أجمل منه صوتا.

أما الشيخ الثـانى، القارىء العمـلاق، بل عملاق العمالقـة فهو مصطفى إسماعيل فى الحفـــلات الـدينيـة التى تقـام فى القصـور والمساجـد.. هناك يكـون الإبداع.. وهنـاك تعلو أصـوات السامعين والسامعـات إكبارا وإجلالا وطربـا وخشوعا وذهولا، هنـاك فى هذه الحفـلات ينقل شيخنـا مصطفى إسماعيل سـامعيه من عـالم إلى عالم.

هكذا كان مصطفى إسماعيل منذ «رمضـانيات» قصر عابدين فى دولـة «فـــاروق» وظل كـذلك فى دولـة عبـدالنـاصر ثـم فى دولـة السادات.. إلى أن قضى نحبه فى دولة مبارك.

وكنت ذات يـــوم أزور الشيخ مصطفـى إسماعيل فى شقتـــه بـالـزمالـك فسألته عـن سر الفرق بين التسجيـلات المذاعـة وبين الحفـلات الكبرى ؟ فكان جـوابـه: فى الحفـلات الوقت أطـول، وفى الحفلات تجاوب بينه وبين جمهور السامعين، بل الجماهير الغفيرة من سامعين وسـامعات ليس من المحيط إلى الخليج فحسب.. بل فى كل بلد مسلم، إيران وتركيا والباكستان حتى أندونيسيا.

ومصطفى إسماعيل بـالنسبـة لمن عـــاصروه من القـراء كـان كبيرهم الـذى علمهم السحـر، ســـحر التـلاوة والقـراءة تجويـدا وترتيلا.

وقـد حـاول الكثيرون أن يقلـدوه ولكنهم فشلـوا ،لأن مصطفى إسماعيل كان فى تلاوته ـ كما قلت أنت بحق ـ سهلا ممتنعا.

وحـاولت مـرة أن أعـرف من الشيخ مصطفى عمن يعجبـه من المطربين والمطربات، فاكتفى بالقول: واحدة وواحد.

أما الـواحدة فهى بالطبع «أم كلثـوم» وأما الواحد فهـو «صالح عبدالحى».

ويبــدو لى ولكثير من عشـــاق التـــلاوة.. أن الشيخ مصطفى إسماعيل قـد تأثـر إلى حـد كبير فى أسلـوب تـلاوتـه بـــ «صـالح عبدالحى» صاحب «المواالات» و«الليـالى» والقصائد الشهيرة.. والتى سار على أسلوبه الكثيرون حتى يومنا هذا.

محمود السعدنى والمرأة:

ليس فى كتاباتك ياشيخنا يـامحمود، مايشير أو يشم منه رائحة عــدائك للمـــرأة .. ولكنـــك مع ذلك ، وســـامحك الله ، تجاهلت السيـدة الأولى بل السيـدة الوحيـدة التى سجلت بصـوتها الجميل آيـات من «ســورة محمـد» فكـانت أول قـارئة مصريـة والقـارئة الـوحيدة التى عـرفتها أسطـوانـات تلك الأيام، وكـان ذلك فى أوائل القرن الحالى.

ألم تسمع بها ياأستاذ محمـود؟ وكيف لمثلك ألا يسمع بالشيخة «سكينة حسن» فلماذا إذن لم تتطـرق إليها فى أحـاديثك عن القراء والتالين.. لماذا؟

تجاهلت أجمل صوت بين القراء الـذين قضوا نحبهم والذين هم ينتظرون، ذلك هو صوت البهتيمى.

ثم تجاهلت القـارئة الأولى والقـارئة الـوحيدة «شيخـة سكينـة حسن» فهل لك الآن أن تحدثنـا عنهـا، كما ستحـدثنـا عن كـامل يوسف البهتيمى وإن اتسع لك المقـام والمقال فحدثنـا عن «صـالح عبدالحى» كذلك.

وأخيرا ، سلام عليـك يوم ولـدت ويوم تموت بعـد عمر مـديد.. ويـوم تبعث حيا ، ونعـوذ بـالله من شر ذلك اليوم المستطير الـذى سـتعود فيه حيا ، كتـابك بشمالك وقلمـك الـساخر بيمينك!

أو ليست الحياة كلها سخرية فى سخـرية؟ ألسنا جميعا يسخر بعضنا من بعض؟

وأخيرا مرة أخرى، رسالتى هذه تحية لك.

أسترد على تحيتى هـذه بأحســن منهـا أو مثلهـا؟ أو على الأقل بأقل منها؟

يحيى عاصـم
كاتب ســابق
وقارىء لاحق

وتلك الأيـــام نـداولها بين النـــاس وبين الكتـاب والقـــراء والمقرئين.

يحـيى عاصـم
YAHYA ASSIM
ALVEN PALACE HOTEL
R. JACOB RICHLIN 208
JOINVILLE - S.C.
BRAZIL

رقم الإيداع ١٠٩٨٩ / ٩٥
الترقيم الدولى I. S. B. N
977 - 08 - 0269 - 7